الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية العلوم السياسية
قسم الدراسات السياسية

العنصرية الغربية في مواجهة الشرق
من منظور سياسي ثقافي

The Western Apartheid in the Face of Orient
from a Political and Cultural Perspective

بحث أعد لنيل درجة الماجستير في الدراسات السياسية

إعداد الطالب

فراس فرزت القطان

المشرف المشارك

الدكتور سمير حسن

أستاذ مساعد في قسم الدراسات السياسية
في كلية العلوم السياسية – جامعة دمشق

المشرف العلمي

الدكتور حسن أبو حمود

أستاذ في قسم الدراسات السياسية
في كلية العلوم السياسية – جامعة دمشق

العام الدراسي ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م

تصريح

أصرّح بأن هذا البحث " العنصرية الغربية في مواجهة الشرق من منظور سياسي ثقافي " لم يســـبق أن قُبـــل للحصول على أية درجة علمية , ولا هو مقدّم حالياً للحصول على درجة علمية أخرى .

المرشح

فراس القطان

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ / / ٢٠٠٩ من قِبل لجنة الحكم المؤلفة من السادة :

- الدكتور سليم بركات :

الأستاذ في قسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة دمشق عضواً

- الدكتور حسن أبو حمود :

الأستاذ في قسم الدراسات السياسية في كلية العلوم السياسية بجامعة دمشق عضواً مشرفاً

- الدكتور جمال المحمود :

الأستاذ المساعد في قسم الدراسات السياسية في كلية العلوم السياسية بجامعة دمشق عضواً

شهادة

نشهد بأن العمل المقدم في هذه الدراسة , هو نتيجة بحث علمي قام به المرشح فراس القطان , بإشراف الدكتور حسن أبو حمود (المشرف العلمي) , الأستاذ في قسم الدراسات السياسية , كلية العلوم السياسية بجامعة دمشق , والدكتور سمير حسن (المشرف المشارك) , الأستاذ المساعد في قسم الدراسات السياسية , كلية العلوم السياسية بجامعة دمشق .

وأن أية مراجع أخرى ذكرت في هذا العمل موثقة في نص هذه الدراسة .

المرشح	المشرف المشارك	المشرف العلمي
فراس القطان	الدكتور سمير حسن	الدكتور حسن أبو حمود

المخطط

مقدمة :

العنصريّة ظاهرة اجتماعية رافقت تطور البشرية، وُجدت قديماً بألوان متعددة، واتَّخذت حديثاً أنماطـــاً وأبعـــاداً جديدة انعكست آثارها في أشكال من الصراعات والحروب المدمرة والكارثيّة التي حصدت الإنسانية نتائجها.

و إذ يتناول الباحث هذه الظاهرة في سياقها التاريخي, فمن الطبيعي أن يقف عند الجـــذور الفكريـــة والفلســـفية والنظريات التي تبنّتها ودافعت عنها، فضلاً عمّا خلَّفتهُ من انعكاسات سلبية على صعيد تطور المجتمعات, إضافة إلى دور هذه المجتمعات في التصدي لهذه الظاهرة السلبية، وأهمية دور الشرق في مواجهتها.

وتعد العنصرية وصدام الحضارات, إضافة لحوار الحضارات من أبرز الموضوعات الشاغلة للفكر الإنساني في الزمن المعاصر. وإن المجتمع الشرقي و الإسلامي على وجه التحديد يواجه مشكلة سعي الحضارة الغربية إلـــى تفكيك ركائز الحضارة الإسلامية ، وإقامة ركائز غربية مكانها.

ولتحقيق هذا الهدف استخدم الغرب أساليب الإخضاع بكل أشكاله سياسياً واقتصادياً وعســكرياً وثقافيـــاً وعلميـــاً وإعلامياً وقيمياً واجتماعياً. وتجلى ذلك بوضوح منذ أوائل القرن السابع عشر مع ظهور فئات المستشرقين, وبعد ذلك كان الغزو العسكري بشكله المباشر، ثم الغزو غير المباشر الاقتصادي والسياسي والإعلامي والثقافي, إلـــى أن انتقلت المواجهة بين الحضارتين الإسلامية والغربية في المرحلة الراهنة إلـــى شـــكلها الصـــراعيّ بـــأعلى مستوياته, وهذا ما دعا المسلمين والعرب إلى محاولة نقل هذه العلاقة بين الحضارتين من صـــعيدها التصـــادمي إلى صعيد الحوار, ولكي يتحقق ذلك يرى الباحث أنه ينبغي على العرب والمسلمين أن يؤمنوا بـــأن لـــديهم مـــا يؤهلهم لكي يكونوا فعلاً وليس ردّ فعل، أي فاعلين وليسوا منفعلين, وأن يفعّلوا الحوار، ولا يقفوا به عنـــد حـــد الشعارات والنداءات والتمنيات والآمال، وأن يلمّوا شتاتهم بالدرجة الأولى، ويعالجوا الأسباب التـــي أدت علـــى تفرقهم وضعفهم.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في كون ظاهرة العنصرية خلقت واقعاً اجتماعياً كانت له نتائجه الكارثية على صعيد المجتمع الَّذي ظهرت فيه، وعلى مستوى البشرية جمعاء بما توله هذه الظاهرة من انعكاسات سلبية وردود أفعال على من يمارس بحقهم التمييز العنصري.

وبما أن العنصرية ظاهرة سلبية تستوجب المواجهة, فإن الباحث يحاول تبيان مخاطرها على الأصعدة المختلفة السياسية والعسكرية والاقتصادية, إضافة إلى مخاطرها على صعيد البنى الفكرية والثقافية والأخلاقية والقيمية.

فضلاً عن توصيفها وتتبّع نشأتها، والتقصي عن أبعادها الفكرية والفلسفية ووسائلها المتَّبعة، والمخاطر الناجمة عنها.

كما يحاول الباحث الوصول إلى إستراتيجية مبنيَّة على أسسٍ علمية تهدف إلى تفنيد الفكر العنصري الَّذي يعدُّ خطراً جسيماً يهدد مستقبل الإنسان ويقضي على أواصر اللُّحمة بين الشعوب.

إضافةً إلى ذلك.. من جملة ما يهدف إليه البحث هي محاولة تقويض الصورة المشوَّهة عن العرب والمسلمين وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول, وما رافقها من اتهامات وادِّعاءات ربطت بين الإسلام والإرهاب لإظهار الصورة الحقيقية للعرب والمسلمين بعيداً عن الإرهاب والتطرف .

إشكالية البحث:

إن الكثير من الأنظمة العربية أصبحت تابعة بشكل شبه مطلق للولايات المتحدة الأمريكية, بل راح البعض مـــن هذه الأنظمة أبعد من ذلك من خلال توقيع اتفاقيات منفردة مع الكيان الصهيوني منذ فترة تعود لأكثر من ثلاثـــة عقود, وقد تكررت هذه الحالة حتى هذا الوقت.

فالواقع السياسي للدول للعربية صعب جداً, وقد فرض في أوقات كثيرة حالات من الخلافات والخصومات بـــين الدول العربية ذاتها.

في ضوء هذه الظروف يرى الباحث استحالة مواجهة جدّية لدى الدول العربية لما يُفرض عليها مـــن عنصـــرية واستغلال من قبل الدول الغرب ما لم تأخذ بأســـباب وحـــدتها السياســـية والعســـكرية والاقتصـــادية والثقافيـــة والإعلامية.

فرضيات البحث :

ينطلق البحث من عدَّة فرضيات أبرزها :

١- إن العنصرية ظاهرة اجتماعية مرضيّة تؤثر سلباً على مختلف الهويات الثقافية للمجتمع البشري.

٢- تُحدِث العنصرية السياسية حروباً بين المجتمعات الإنسانية.

٣- إنَّ العنصرية السياسية قائمة على أفكارٍ خاطئة ليس لها أساسٌ موضوعي يقرُّه العلم.

٤- تؤدي العنصرية السياسية إلى تثبيت هوية ثقافية وسياسية " وإن كانت في الحقيقة باطلة ومغلوطة " لأممٍ وفئاتٍ اجتماعية على حساب أممٍ أخرى (كالكيان الصهيوني مثلاً).

٥- تنطلق العنصرية السياسية من تبرير المصالح السياسية والاقتصادية للمؤسسات الاقتصادية الدولية والشركات متعددة الجنسيات على حساب الأغلبية الساحقة من البشر مما يعكس التفاوت بين الشمال والجنوب, وبين الأغنياء والفقراء.

وبناءً على ذلك فإنَّ البحث يطرحُ التساؤلات التالية :

١- ما هي الدوافع التي تجعل الغرب يمارس عنصريته على الشعوب النامية .؟

٢- ما هو واقع الشرق حيال عنصرية الغرب السياسية والثقافية .؟

٣- إلى متى سيستمر هذا الواقع العربي المستسلم .؟ وهل هناك حلول ممكنة مستقبلاً.؟ وكيف يمكن لذلك أن يتحقَّق .؟

النطاق الزمني للدراسة:

ليس من نطاق زمني محدد ودقيق لهذه الدراسة, فظاهرة العنصرية قديمة قدم التاريخ, تطـورت مـع تطـور البشرية, وهذا ما تحدّث عنه الباحث, إلا أنه خصص القسم الأكبر في بحثه هذا ضمن إطار زمنـي يمتـد منـذ نشوء ظاهرة الاستشراق في أوائل القرن السابع عشر, فالاستشراق هو المرحلة العنصرية الأولـى الواضـحة التي بدأ عندها الغرب يمارس عنصرية بشكل صريح ضد الشرق.

أما نهاية فترة هذا البحث فقد كانت عام ٢٠٠٩ حيث أتم الباحث إنجاز بحثه.

المنهجية العلميّة المتَّبعة :

قام الباحث باتِّباع منهجين أساسيين في إعداد البحث:

أولاً: المنهج التاريخي: من خلال تتبُّع تطور ظاهرة العنصرية في السياق التاريخي, والتوقُّف عند كـل مرحلـة من مراحل هذا التطور.

ثانياً : المنهج التحليلي: القائم على الملاحظة, وتحليل ظاهرة العنصرية, وتوضيح أسـبابها ودوافعهـا, وتبيـان مخاطرها.

بعض الدراسات السابقة:

لقد عثر الباحث على العديد من الدراسات التي تتحدَّث عن موضوع العنصرية, وأهمِّها من وجهة نظره:

١- هشام الحديدي في كتابه "**الإرهاب**" القاهرة , الدار المصرية اللبنانية, ١٩٩٩ ويتحدث الكاتب عن دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق وأساليبه المتَّبعة لتحقيق ذلك, مؤكداً على أهمية الدافع النفسي, إذ يبيَّن الكاتب بروز تيار قومي عنصري ومؤثِّر في دول الغرب ينظر إلى الإسلام كعدوّ، خاصَّةً في ظلّ حالة الانتصار التي يعيشها الغرب بعد سنوات من انتهاء الحرب الباردة, بالرغم من أنَّ هذا العدوّ الجديد (ويعني الإسلام) لا يملك القوَّة العسكرية التي يهدِّد بها الغرب, إلاَّ أن الإعلام الغربي يعمد إلى وضع الإسلام في خانة العدوّ الجديد كي يوجِّه ويشبع النفسية الغربية التي تقوم على التحدّي, مغفلاً باقي الدوافع التي قام الباحث خلال بحثه هذا بتسليط الضوء عليها, كالدافع الأيديولوجي والدافع المادي الاقتصادي.

وفي موضع آخر يتحدَّث الحديدي عن الوسائل الغربية المتَّبعة في ممارسة عنصريّتها ضدَّ الشرق, ويذهب إلى جعل الإعلام الغربي في المقدِّمة, والَّذي يقدِّم صورة عن العرب والمسلمين تجمع بين التخلف والضعف والإجرام والإرهاب والتطرف والاستسلام واليأس.

٢- ويلتقي كتاب "**صورة العرب في الإعلام الغربي**" لـ (أديب خضُّور) الصادر في دمشق , عام ٢٠٠٢ مع كتاب "**الإرهاب**" لـ (هشام حديدي) في التأكيد على الدور الَّذي تلعبه المؤسسات الإعلامية الغربية في ممارسة العنصرية من خلال إيجاد علاقة ترابط بين الإسلام والتخلّف، والإسلام والإرهاب, لكن خضور لم يتطرق إلى الأسباب والدوافع التي أدت إلى هذه الممارسات, وهذا ما قام الباحث بتناوله, وتوضيحه.

٣- إدوارد سعيد, "**الاستشراق**" , ترجمة كمال أبو ديب, بيروت, مؤسسة الأبحاث العربية, ١٩٨٤.

وهو من أهم الكتب الأجنبية المترجمة التي عثر عليها الباحث لخدمة بحثه هذا.

وتضمّن الكتاب موضوع الاستشراق بمجمل نواحيه (تاريخ نشوئه, أساليب المستشرقين العنصرية تجاه الشرق, دوافعهم لممارسة هذه العنصرية.....).

إلا أن الكاتب لم يقدم أيّة إستراتيجية أو حلول يستطيع من خلالها الشرق مواجهة أساليب المستشرقين العنصرية تجاههم.

لكنّ الباحث قدم في هذا البحث بعضاً من الحلول التي يمكن للشرق, وللمسلمين والعرب تحديداً أن يعتمدوها في ظل الظروف الراهنة.

٤- في دراسة صادرة عن منظمة أونسكو تحت عنوان "**العرقية إزاء العلم**" ترجمة أنطوان خوري, بيروت دار الثقافة, ١٩٧٠ قدَّمت فيها هذه المنظمة الدولية تسلسلاً تاريخياً للعنصرية وأفكارها, فهي توضح بدايةً أقدم إشارة إلى حالة تمييز عنصري منذ الألف الثانية قبل الميلاد, وبعد ذلك تستعرض هذه الدراسة بعض النظريات العرقية كالداروينية الاجتماعية وتفوُّق العرق الآري.

وذهبت هذه الدراسة إلى التفنيد العلمي لظاهرة العرقيَّة, مبيِّنة أنَّ أسباب نشوئها, والأخذ بها من قبل بعض الأحزاب السياسية والهيئات القومية والمذاهب الاجتماعية ما هو إلاَّ تبريرٌ لامتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية وطموحاتهم التوسعية الاستعمارية.

إلا أن هذه الدراسة أغفلت بعض النقاط, وأهمها الحديث عن أساليب العنصرية ووسائلها المتبعة تجاه الشرق, وهذا ما وضحه الباحث حيث تحدث عن الاستشراق وعن دور المؤتمرات والمنظمات الغربية. كما قام الباحث بدراسة ظاهرة العنصرية في الفكر السياسي المعاصر, إذ تناول فكرة صدام الحضارات ومرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول, وهذا ما لم تتطرق إليه منظمة أونسكو في دراستها كونها أُعدت قبل هذه الأحداث.

تقسيم الدراسة:

تقع الدارسة في مقدمة وأربعة فصول مشفوعة بخاتمة.

حيث حاول الباحث في الفصل الأول: تكوين إطار نظري للدارسة يشكل قاعدة انطلاق فكرية لما يسعى للوصول إليه في الفصول اللاحقة, لذا تم تقسيم الفصل الأول إلى مبحثين. اهتم المبحث الأول بالحديث عن مفهوم العنصرية وجذورها التاريخية, وتناول المبحث الثاني الحديث عن أهم أشكال العنصرية كالداروينية والفاشية والنازية.

أما الفصل الثاني: فقد تم من خلاله تبيان مراحل تطور العنصرية الغربية تجاه الشرق في ثلاثة مباحث. اختص المبحث الأول بدراسة الاستشراق كمرحلة أولى وواضحة, قام أثناءها الغرب بممارسة عنصريته تجاه الشرق, بينما تحدث المبحث الثاني عن العنصرية الصهيونية متناولاً نشأتها ودوافعها وأساليبها لتحقيق غاياتها, وأُفرد المبحث الثالث للحديث عن الفكر السياسي المعاصر فيما يخص موضوع العنصرية الغربية تجاه الشرق, فكانت هناك قراءة في مفهوم صدام الحضارات والحديث عن العنصرية الغربية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ في أمريكا.

وجاء الفصل الثالث: تحت عنوان دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق, وأساليبه وعلى هذا تم تقسيمه إلى مبحثين, اختص الأول بالحديث عن دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق, ووجد الباحث أنها دوافع أيديولوجية وفلسفية ودوافع مادية اقتصادية. بينما قام في المبحث الثاني بإبراز أساليب الغرب العنصرية تجاه الشرق والتي تجسدت بالدور الفكري والثقافي الغربي وبالمؤتمرات والمنظمات الغربية أيضاً.

وفي الفصل الرابع: حاول الباحث في المبحثين الأول والثاني رصد واقع الشرق والمصاعب التي يعانيها المسلمون والعرب تحديداً من النواحي الفكرية والسياسية والثقافية, بينما خصص المبحث الثالث والأخير لطرح بعض الحلول الممكنة في ظل الظروف الراهنة والتي يمكن للشرق عموماً وللعرب على وجه التحديد أن يأخذوا بها للمّ الشتات ومعالجة الأسباب التي أدت إلى تفرقهم وضعفهم, وبالتالي استغلالهم من قبل قوى الغرب العنصرية.

صعوبات الدراسة:

لقد واجه الباحث أثناء إعداده لهذه الدراسة صعوبات عديدة, كان أبرزها النـــدرة النســبية للمراجـــع الأكاديميـــة الحديثة باللغة العربية, حيث كثر الحديث عن العنصرية الغربية في الفكر السياسي المعاصر كمقالات صحفية أو محاضرات وندوات رسمية وغير رسمية, بينما قلَّ جداً ككتب ودراسات أكاديمية.كما عانى الباحث من الـــروتين الموجود في مكتبة الأسد الوطنية فيما يتعلق بإعارة وتصوير الكتب التي احتاجتها الدراسة, إضافة إلى افتقارهـــا للمراجع الحديثة باللغتين العربية والأجنبية.

مصطلحات الدراسة:

١ – العنصرية:

هي أي تمييز أو حرمان أو تقييد أو أفضلية على أساس العنصر أو اللون أو السلالة أو الأصل العرقي والقومي.

٢ –العرقية:

هي النظرية أو الفكرة القائلة: إن هناك علاقة سببية بين الصفات الجسدية الموروثة, وبين صفات معينـــة تتعلـــق بالشخصية أو العقل أو الثقافة, وإن بعض الأعراق متفوقة على أعراق بصورة وراثية.

٣ – الداروينية:

هي النظرية العنصرية التي وضعها عالم الأحياء الإنكليزي داروين في أواسط القـــرن التاســـع عشـــر, والتـــي استندت إلى الفكرة القائلة: إن الكائنات الحية كانت قد تطورت نتيجة التنافس أو نتيجة عملية الاصطفاء المستمرة والصراع من أجل الحياة, فالصراع بنظره هو نظام وشريعة وعامل ارتقاء, فلكي يسمو الإنسان عليـــه أن يظـــل خاضعاً لصراع عنيف, مبرزاً جدوى المعركة التي تسمح لأصـــحاب المواهـــب العاليـــة أن يســـتغلوا ضـــعاف المواهب.

٤ – الفاشية:

هي الديكتاتورية الإرهابية التي ترأستها العناصر الموالية للرأسمال الضخم, وهـــي مـــذهب يـــدعو إلـــى حكـــم أوتوقراطي (فردي) وإلى السيطرة على كل شيء. وقد نشأت في إيطاليا خلال الربع الأول من القرن العشـــرين وكان أبرز مؤسسيها الزعيم الإيطالي موسوليني.

٥ – النازية:

هي شكل من أشكال العنصرية, حيث أن مفهوم النازية للشعب يعني الشعب العنصري الذي نشأ بواسطة التقـــاء أفراد الدم الواحد, وكل دعاتها وفلاسفتها الذين جاؤوا بهذه النظرية بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر, كانوا

قد أجمعوا على التفوق العنصري للشعب الألماني, وبأحقيّة الزعامة للمواطن الألماني المحافظ على سلالته من تسلل واختلاط العناصر غير الآرية, وقد تأثر هتلر بهؤلاء الفلاسفة وتبنّى وجهات نظرهم.

٦- الصهيونية:

هي حركة سياسية عنصرية استعمارية استيطانية عدوانية توسعية مرتبطة بالاستعمار, تسخّر الدين اليهودي لتحقيق أهدافها في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين والأراضي المجاورة لها.

٧- الإرهاب:

هو نظام عصر الرعب والخوف والفزع, ويعتمد على العنف والقوة. والإرهابي هو الشخص الذي يحاول فرض وجهة نظره بطريقة قسرية تثير الخوف والهلع.

٨- صدام الحضارات:

عنوان المقالة العنصرية التي كتبها المفكر الإستراتيجي وأستاذ علوم الدولة في الجامعات الأمريكية صاموئيل هانتنغتون عام ١٩٩٣, وذلك في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية, ثم ما لبث أن وسّعها وأخرجها في كتاب بعنوان "صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي", عام١٩٩٦, ويرى هانتنغتون أن الدين هو السمة الرئيسية المحددة للحضارات, ليؤكد في النهاية أن الصراع سيكون ثنائي الأطراف بين الحضارة الغربية والحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية (الصينية) من جهة أخرى.

٩- نهاية التاريخ:

عنوان المقالة العنصرية التي كتبها المفكر الأمريكي ذو الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما في المجلة الأمريكية ناشيونال انترست بعد مقالة "صدام الحضارات" لـ "هانتنغتون" بسنوات قليلة. ومن ثم وسعها في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير", وذهب فوكوياما في مقالته هذه إلى أن العالم ينبغي أن يدور في فلك الغرب, ويأخذ قيم الليبرالية والديمقراطية باعتبارها نهاية التقدم بعدما سقطت الشيوعية, وتفكك الاتحاد السوفييتي, والتحقت أوربا الشرقية بالغرب. وتوصل في هذه المقالة إلى أن العالم الإسلامي يمثل عصراً سابقاً للبشرية أسيراً للتاريخ يصعب تحرره منه, بينما الغرب فقد تخطّى الدورة التاريخية ووصل إلى حالة التطابق بين المثل والواقع بالغاً الكمال الأخير.

١٠- الاستشراق:

أداة خطيرة استخدمها الغرب في عدائه للشرق منذ أوائل القرن السابع عشر, مع التطور العلمي والصناعي, والتفوق الاقتصادي والعسكري لدول أوربا.

والاستشراق كان ولا يزال أسلوباً غربياً يهدف إلى فهم الشرق والسيطرة عليه, مؤكداً على أن الشخصية العربية هي المسؤولة عن عدم القدرة بشكل مطلق على التحديث, وبالتالي فإن العلاج الوحيد بالنسبة للعرب هو تلقّي الاستشارة من الغرب المتطور.

١١- الأيديولوجيا:

مجموعة الآراء والأفكار والعقائد والفلسفات والتصورات والقيم المشتركة التي يؤمن بها شعب أو أمة أو حزب أو جماعة.

١٢- العولمة:

هي السعي لتعميم أو نشر أمر ما على مستوى العالم كله, وتعني إكساب الشيء طابع العالمية, وجعل نطاقه وتطبيقه عالمياً, من خلال انتقال السلعة ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات بسرعة وسهولة.

١٣- الحرب الباردة:

هي حالة الصراع والتناقض الجذري في المصالح, والعداء الواضح في الأيديولوجيا التي سادت بين القطبين المتصارعين, الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي سابقاً بعد الحرب العالمية الثانية, وقد استُخدمت فيها كافة الأساليب والوسائل في إدارة هذا الصراع عدا الأسلوب العسكري المباشر.

١٤- الإمبريالية:

تطور لفظي لكلمة إمبراطور, تعني السيطرة الشاملة على قدرات الشعوب (أي محاولة فرض السيطرة الكاملة على العالم) من خلال الاحتكارات الاقتصادية. فالإمبريالية أعلى مراحل الاستعمار الذي يمثل أعلى مراحل الرأسمالية.

١٥- الليبرالية:

مذهب سياسي واقتصادي.

في السياسة: يعني استقلال الفرد واحترام الحرية الشخصية وحماية الحريات المدنية واتباع النظم الديمقراطية البرلمانية.

وفي الاقتصاد: تؤكد على حرية الفرد والمنافسة الحرة ورفض القيود على حركة التجارة.

١٦- الشركات متعددة الجنسيات:

هي شركات عملاقة كبيرة الحجم لها سيطرة على قطاع دولي ضخم من الموارد البشرية والمالية, وتمارس نشاطها في عدد كبير من الدول. أما مالكو أسهم هذه الشركات ومديروها فهم ينتمون إلى جنسيات عديدة.

١٧- الحلف:

اتفاق بين دولتين أو أكثر, تتعهد بموجبه الأطراف بالقيام بعمل مشترك أو الاستعداد للقيام بتصرف ما, أو الامتناع عن عمل ما في ظروف محددة, لتحقيق أهداف معينة, كردع طرف ثالث أو تحقيق توازن معه.

١٨- المنظمة الدولية:

هيئة يتفق عدد من الدول على إنشائها على نحو دائم, لتحقيق أهداف وغايات مشتركة, وتتمتع هذه الهيئة بشخصية قانونية وأهلية للتعبير عن إرادة ذاتية في المجال الدولي.

وتقسم المنظمات الدولية إلى منظمات حكومية وهي منظمات تلتقي إرادات الدول على إنشائها, وأخرى غير حكومية تؤلّفها جهات غير حكومية.

١٩- الإستراتيجية:

هي تحقيق المواءمة أو التكيف بين الخطط والأهداف البعيدة التي تحددها الدولة وبين الوسائل و الأدوات من أجل تحقيق هذه الأهداف.

٢٠- الحزب:

مجموعة من الناس ذوي الاتجاه السياسي الواحد والنظرة المتماثلة في الآراء والأفكار, يرتبطون ببعضهم وفق قواعد تنظيمية تحدد علاقاتهم وأسلوب عملهم لتحقيق الأهداف المشتركة التي يؤمنون بها.

- الفصل الأول: مفهوم العنصرية, نشأتها, أهم أشكالها.

- المبحث الأول: مفهوم العنصرية ونشأتها.
  - المطلب الأول: مفهوم العنصرية.
  - المطلب الثاني: الجذور التاريخية لظهور العنصرية.
- المبحث الثاني: أهم أشكال العنصرية.
  - المطلب الأول: الداروينية.
  - المطلب الثاني: الفاشية.
  - المطلب الثالث: النازية.

الفصل الأول: مفهوم العنصرية, نشأتها, أهم أشكالها.

- المبحث الأول : مفهوم العنصرية ونشأتها.

المطلب الأول: مفهوم العنصرية.

إنَّ التمييز العنصري كمعنى أكاديمي كما عرّفه الميثاق الدولي لإلغاء جميع أشكال التمييز العنصري هو "أي تمييز أو حرمان أو تقييد أو أفضلية على أساس العنصر أو اللون أو السلالة أو الأصل العرقي والقومي" [١].

كما عرفت دائرة المعارف البريطانية "الانسكلوبيديا" العنصريةَ على النحو التالي:

العنصرية: "هي النظرية أو الفكرة القائلة: إن هناك علاقة سببية بين الصفات الجسدية الموروثة و بين صفات معينة تتعلق بالشخصية أو العقل أو الثقافة, يضاف إلى هذا فكرة أن بعض الأعراق هي متفوقة على أعراق أخرى بصورة وراثية. إن تعبير العنصرية ليس مرتبطاً بالضرورة بالتمييز البيولوجي أو الانتروبولوجي للعرق الَّذي هو تقسيم فرعي للنوع, وغالباً ما يجري سحب الأفكار العنصرية بلا تمييز إلى مجموعات غير بيولوجية وغير عرقية مثل الطوائف الدينية والأمم والمجموعات اللغوية والمجموعات الإثنية أو الثقافية". وقد أكد تصريح الأمم المتحدة ذو الرقم /١٩٠٤/ الصادر في ٢٠ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ على أنَّ "كل عقيدة تنادي بالتفرقة العنصرية أو بالتفوق العرقي هي عقيدة خاطئة من النواحي العلمية, كونها غير عادلة, و خطيرة من الناحية الاجتماعية, وتستحق الإدانة". كما أخذت الجمعية العامة باعتبارها القرار ذا الرقم /٧٧/ الذي اتخذه مؤتمر رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الإفريقية المنعقد في "كمبالا" آب عام ١٩٧٥, حيث بيّنَ "أنَّ للنظم العنصرية مصدراً إمبريالياً مشتركاً, وغايتها اضطهاد كرامة الإنسان. وأكبر مثال على ذلك النظام العنصري الصهيوني في فلسطين, والنظامان العنصريان في زمبابوي وجنوب إفريقيا[٢].

في حين بينت منظمة أونسكو أنه أياً كان شكل التمييز العنصري فهو في جميع الحالات, تمييز موجه إلى فئة عرقية أو دينية بسبب عرقها أو دينها أو لونها بمعنى أنه لا تستمتع هذه الفئة بحقوقها وحرياتها, وإنما تتعرض لأشكال متنوعة من القيود من حيث السكن والتعليم والعمل والمرافق والخدمات مما يجعل مستواها الفكري والاجتماعي والاقتصادي أقل من مستوى الفئات الأخرى.

---

١ - حبيب قهوجي, "**الصهيونية والعنصرية في الفكر والممارسة**", دمشق, منشورات مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية, ط١, ١٩٨٠, ص٤٩.

٢ - المرجع السابق, ص١١-١٦.

وفي حين تعتبر الاختراعات والاكتشافات الكبرى والقوة السياسية مدعاة اعتزاز وافتخار للرجل الأبـيض,إلا أن ما يمكن تأكيده كطرف آخر للمعادلة هو أن هذه المكاسب حملت للبشرية مزيداً من وسائل الـدمار والكـوارث الكبرى. وهذا التناقض يؤكده الدكتور "ألفرد ميترو" أحد كبار العلماء الانتوغرافيين بقوله: "إن العنصـرية هـي بين مظاهر الثورة الواسعة الحاصلة في العالم أكثرها إثارة للاضطراب وقلقاً للنفس. ففي الساعة التي تمتد فيهـا حضارتنا الصناعية إلى جميع بقاع الأرض قاطبة, وتنزع الشعوب الملونة من تقاليدها القديمة يتـذرّع الـبعض بنظرية ذات طابع علمي مغلوط لمنع هؤلاء البشر بالذات, وقد حرموا من تراثهم الثقافي, من الاشتراك الكامـل بحسنات الحضارة المفروضة عليهم. فثمة تناقض محتوم داخل حضارتنا, فهي تفرض من جهـة علـى سـائر الثقافات قيماً تنسب إليها كمالاً لا جدل فيه, ولا تسلم من جهة ثانية أن ثلثي البشرية قادرون على بلـوغ الهـدف الَّذي تقترحه عليهم"[١].

إن هذه التعاريف تشترك مع معظم الدراسات التي تناولت مفهوم العنصرية في أنَّ: الجوهر الحقيقـي للظـاهرة العرقية هو الادعاء بأنّ البشر غير متشابهين, و ثمة فوارق في مظهرهم الجسماني تنتقل كلياً أو جزئياً من الآباء إلى الأولاد, وأن مجموعات متشابهة نسبياً تؤلف ما يسمونه بالأعراق. فهذه الأعراق تقع عند مستويات شـتّى إذ ينعم بعضها بحسنات حضارة متقدمة بينما بعضها الآخر ما يزال في طور متخلف.

ويبقى بالتالي الرجل الأبيض ذو الحضارة الغربية يجد نفسه اليوم في أعلى السلم رغم التهديدات التي تصعد من الداخل والخارج ضد حضارة يعتبرها وحدها جديرة بهذا الاسم, ويتوهَّم أنه صنيع نفسه, وأنه تُلقـى عليـه منـذ الولادة وبفعل تكوينه الخاص رسالة تحضيرية للشعوب الأخرى .

ولم تكتفِ العنصرية بإعلان تفوق الأبيض على المجموعات البشرية ذات اللون غير الأبيض , والحكـم علـى اختلاط الأعراق بالتأكيد على أنه خطر يؤدي إلى انحطاط العنصر, وإنما ذهبت إلى إقامة تسلسـلات بيولوجيـة وسيكولوجية داخل العرق الأبيض نفسه محاولة بذلك تبرير امتيازات جديدة في السـيطرة والاسـتعمار لصـالح طبقة معينة. وهكذا برز مذهب "تفوق العرق الآري" الَّذي أدى بدوره إلـى ولادة خلافـات ثانويـة (التوتونيـة, الأنكلوسكسونية, السلتية.....) التي تطورت في آن واحد في ألمانيا وإنكلتـرا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفرنسا[٢].

إن الهواية المفضلة لهؤلاء هي إبراز الذات,وهذا حقّ لأيٍّ كان أفراداً أو جماعات, ولكن السـلبي عنـد أولئـك العنصريين هو طمس كل ظاهرة من ظواهر التماثل والتشابه والتوازي بين الأطراف المختلفـة, حيـث يجـري

---

١ – منظمة أونسكو , " **العرقية إزاء العلم** ", ترجمة أنطوان بطرس خوري, بيروت, دار الثقافة, ١٩٧٠, ص ٩٠.

٢ – المرجع سابق , ص٢٨.

تقديم معرفة خاطئة عن الآخر, مؤسسين هوية على قاعدة سحق الهويات الأخرى أو تغييبها. فالمذهب الآخر هو دائماً مذهب نقيض يحمل قيماً سلبية, وتطوره محدود بطبيعته, والعرق المنتخب هو الَّذي يهيمن ويتحكم بالطبيعة مما لا يترك للعرق الآخر سوى ممارسة دورٍ هامشي على مسرح الحياة, ولكنه ضروري لإظهار البطل ألا وهو العرق المنتخب.

فتسرع هنا السياسة البيولوجية إلى سياسة الحل النهائي في التصفية الجسدية المتجددة دوماً, فإن اختفى الآخر(العدو) لسبب ما فيجب بالتالي إعادة خلقه كضرورة أيديولوجية فالشعور بالتمييز العرقي, وبالتالي استعمال العنف إنما هو بحاجة إلى الحرب الدائمة أياً كان نوعها فالسلم الدائم مخيف لأنه ينفي الذات المتعالية القوية بعد أن تكون قد فقدت هويتها. فإما أن تزرع الذعر والخوف وعدم الاستقرار لاقتلاع الآخر من أرضه واستملاكها, أو لرسم حدود وفوارق وتمايزات يتم فرضها قسراً, وبالتالي يستمر وعي الهوية المتمايزة[١].

وهكذا سارعت الحضارة الغربية لتبرير مفردات القوة والتسلط والعنف من خلال سيطرة أفكار النهاية والانحطاط فجاء في كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" للمفكر الأمريكي ذي الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما والَّذي استبعد العالم الثالث من ترسيمة التاريخ العقلانية, معتبراً العالم الثالث بأنه يمثل عصراً سابقاً للبشرية أسيراً للتاريخ يصعب تحرره منه. وبمقابل تحقيره لهذا القسم من العالم يقوم بتبجيل الذات الغربية التي تخطت بنظره الدورة التاريخية,ووصلت إلى حالة التطابق بين المثل والواقع بالغةً الكمال الأخير[٢].

إن افتقار الغرب لبناء مستقل عن الثقافة الإغريقية, وحاجته إلى إبراز هويته الخاصَّة به أدى إلى رسم صورة غير واقعية للإغريق, فذهب البعض إلى اعتبار اليونان اختراعاً أوربياً لكي يجسدوا وَهْمَ الذات المتعالية للغرب وبمقابل ذلك كانت هناك عملية مصادرة لتراث الحضارة اليونانية, وهذا ما قام به فوكوياما عندما عاد إلى أفلاطون وجعل من "الثوموس" هذه الكلمة التي تعني عند الإغريق "الروح أو النفس" واستخدمها أفلاطون ليعني بها القلب والشجاعة. بينما جعل فوكوياما من هذه الكلمة الثوموس ضرورة لتفسير الرغبة والطموح نحو الديمقراطية الليبرالية وصراعاً للميول والقيم, محولاً بالتالي هذا المعنى إلى مفهوم لم يكن يريده أفلاطون, وبالتالي فإن فوكوياما يجعل من الثوموس رغبة في الاعتراف بالمفهوم الهيجلي "جدلية السيد والعبد" ويرجع بالتالي كل أفعال وتصرفات البشر إلى تلك الرغبة. حتى أن العالم الثالث برأيه هو وجود ضروري للغرب

---

١ – نبيل بيهم, "**في أيديولوجية العنف**", الطريق, العدد ٤, السنة ٤٣, آب, ١٩٨٤, ص١١٨ .

٢ – سهيل عروس, "**مأزق الليبرالية – نهاية التاريخ نموذجاً**–", مجلة الفكر السياسي, العدد ١٥ , السنة ٥, آذار, ٢٠٠٢ , ص١١٩.

لامتصاص الطاقات والطموحات الخاصَّة بالشخصيات الثوموسية, مؤكداً على أن الشكل الياباني الحالي, على أن يتجسد أمريكياً هو الَّذي سيعبّر عن الاستحقاق الثوموسي لموعد التاريخ مع نهايته(١).

ويشار إلى أن التمييز العنصري يتخذ صوراً متعددة, كمعاملة العدو الصهيوني للشعب العربي في فلسطين,كـذلك بالنسبة لجنوب أفريقيا, حيث كان ينعكس التمييز العنصري بفصل شبه تام بين الغالبية السوداء المضطهدة, والأقلية البيضاء المتحكّمة بكل شيء, وعلى الأصعدة كافة.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فيظهر عن طريق معاملة الأمريكيين البيض للسود معاملة خاصَّة تجعلهم أدنى من الغالبية البيضاء اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. فلقد عمل زنوج الولايات المتحدة الأمريكية في مزارع القطن والتبغ في شروط لا تصل الحد الأدنى من شروط الحياة, وبأجور بخسة وضمانات قليلة.

وقد روّج الأمريكيون فكرة مفادها أنه ليس لدى الزنوج مشاعر وأحاسيس إنسانية, وذلك كي يبرروا المعاملة الوحشية التي عاملوهم بها, والتي تتعارض كلياً مع المبادئ المعلنة للثورة الأمريكية, ومع قيم الدين المسيحي القائم على التسامح والمساواة وعدم التمييز.

إن ما حدث في أمريكا وجنوب أفريقيا, وكذلك ما يفعله العدو الصهيوني في أرض فلسطين العربية يبيّن أن التمييز العنصري يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاستغلال الاقتصادي و بالحركة الاستعمارية إلا أنه قد يتعدى هذه الصور لنرى شكلاً آخر قد يبتعد كثيراً عن المفهوم المادي, وهذا الشكل تمثَّلَ بـ"الأصولية الدينية", فكما أن الأصولية العلمانية التي ترفض أي تعامل مع الدين في الحياة العامة, وكذلك الأصولية الاقتصادية التي لا ترى إلا الربح والسوق والمنافسة, وأيضاً الأصولية الاجتماعية التي تؤيد حقوق الأقليات دون حقوق الشعوب, والأصولية السياسية التي تأبى إلا التحالف مع الدول الكبرى في نظام واحد للعالم, وهناك الأصولية الثقافية التي تتمسك بالهوية ومظاهرها التقليدية, فإن الأصولية الدينية هي نوع من أنواع العنصرية المدمرة للبشرية.

فالأصولية المسيحية مثلاً تدافع عن حقيقة المسيحية, ولا تعترف بكل التراث النقدي التنويري للدين وتتسّق مع الأصولية اليهودية لتأكيد "العهد وأرض الميعاد", وتحقيق "الوعد الإلهي والاصطفاء لبني إسرائيل", وتلتقي مع الأصولية الإسلامية في رفض مظاهر الحداثة الغربية عبر تحريف جوهر العقيدة الإسلامية.

فبعد أن سارعت الحضارة الغربية منذ عصورها الحديثة في الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر, والنهضة في القرن السادس عشر, والعقلانية في القرن السابع عشر, والتنوير في القرن الثامن عشر, تأزمت في القرن العشرين فقامت حربان عالميتان طاحنتان عنصريتان, أخذتا بهدم ما بنته أوربا سابقاً فظهرت الاتجاهات

---

١ – سهيل عروس , " **مأزق الليبرالية – نهاية التاريخ نموذجاً** – " , مرجع سابق , ص١٠٧.

اللاعقلانية واللاعلمية واللاإنسانية والنسبية والشكلية واللاأدرية والعدمية تنقض القانون والنظام, والنسق, وتقول بالتناقض واللا معنى باسم ما بعد الحداثة.

وفي الواقع ليس بالإمكان هنا إلاّ التأكيد على أنّ ثمة حضارات تجد نفسها في حقبة معينة من التاريخ, وقد حازت على وسائل تقنية متقدمة جداً, مزدريةً أو على أفضل تقدير منتقصةً من قيمة كل أنواع الحضارات التي لم تحز بعد على التقنية المادية, إلاّ أنها قد برعت في تقنيات من نوع آخر, كممارسة الفلسفة والروحانيات وتقنيات السيطرة على الذات والتأمل والفنون بمختلف جوانبها وغير ذلك....

إلا أن ميزان القوة يميل نحو الحضارة الأولى ذات الوسائل التقنية المادية المتقدمة لتنزع بالتالي إلى احتلال مكان الحضارات الأخرى المتخلفة عنها تقنياً, وهذه هي حال الحضارة الغربية اليوم التي تشهد توسعاً يمتد على صعيد عالمي. وهذه القدرة على التوسع العالمي تظهر في النهاية على أنها المعيار الفاصل الَّذي يسمح بأن ننسب إلى كل حضارة درجة من العظمة.

استناداً إلى ما سبق يرى الباحث أن العنصرية لا تتجلى في إطار واحد ولا تأخذ شكلاً معيناً فهي متنوعة متعددة لها غايات مختلفة منها المادية الاقتصادية, ومنها الدينية, ومنها الشعور بالتمايز والهوية الخاصَّة, وما إلى هنالك. ولكن في النهاية تبقى العنصرية بكل أشكالها وألوانها وأنماطها وغاياتها أخطر ما يهدد البشرية, ويثير القلق والاضطراب, ويؤدي إلى كوارث عظيمة, وما الحربان الكونيَّتان الأولى والثانية إلاَّ نتيجة ذلك, عندما أصبحت مسألة الفوارق الفيزيولوجية الفردية المصدر الَّذي تعتمده بعض الأحزاب السياسية والهيئات القومية والمذاهب الاجتماعية بتشجيع وحثّ خرافة التفوق العنصري في جماعتها لكي تقدم بالتالي التبرير, وتقيم البرهان على ضرورة تحقيق غاياتها السياسية والاقتصادية و الاجتماعية, إلى ما هنالك, ولكن بطرق لا تمتُّ للقيم والأخلاق والحضارة بِصلة.

المطلب الثاني: الجذور التاريخية لظهور العنصرية.

كانت الشعوب البدائية تنفي الإنسانية عن غير سلالتها ظَنّاً منها أنَّ من لا يتكلم لغتها متوحش أو أعجم. هذا الأمر تحول إلى عقيدة دينية جعلت قبيلة بدائية تتصور نفسها شعباً مختاراً, بل وصل الأمر بأناسها إلى اعتبار أنفسهم أبناءً للرب(١).

إنَّ أقدم إشارة إلى حالة تمييز عنصري ضد السود- ولئن كانت نتيجة تدبير سياسي لا تعصب عنصري- موجودة على نصب تذكاري أقامه الفرعون سيوستريس الثالث (١٨٨٧ – ١٨٤٩) ق.م عند الشلال الثاني من النيل, وقد كتب عليه: " عند الحدود الجنوبية نصب أقيم في السنة الثامنة من عهد سيوستريس الثالث ملك مصر العليا والسفلى الَّذي يعيش منذ الأزل وإلى الأبد, إن اجتياز هذه الحدود في البر أو في الماء محظّر على كل أسود باستثناء الراغبين في البيع والشراء, الَّذين يُعاملون معاملة الضيوف, ولكن يمنع كل أسود منعاً باتاً من نزول النهر"(٢).

وبشكل عام فإن مسألة العروق مسألة موغلة في القدم وقد تم تناولها بدرجات متفاوتة, فالبعض بشيء من التوازن الإيجابي كالعرب قديماً, حيث اعتزوا بحسبهم ونسبهم, وما هذا الاعتزاز إلا نوع من الفخار المتزن, وفي التاريخ لمحات وضّاءة من هذا التمجيد الهادئ, وهكذا فقد قال النعمان مخاطباً كسرى مفتخراً بالأمة العربية, مفضلاً إياها على جميع الأمم الأخرى دون مساس بكرامة أية أمة أو انتقاص من قيمتها, وعندما سأله كسرى بماذا فضلتها عن سواها من باقي الأمم؟

أجاب النعمان: "بعزتها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها...." (٣).

وبالمقابل فهناك من حمل قضايا العروق على محمل التعصب الأعمى كالفراعنة في مصر فقد عدّوا أنفسهم آلهة, واليونانيين الَّذين مجدوا أنفسهم لدرجة التفرُّد وعدّوا كل البشر دونهم مكانة ومنزلةً.

والتاريخ البشري مليء –بشعوب تعتبر نفسها مختارة- تتبجح بفضائلها وصفاتها الوراثية المزعومة, فعلى سبيل المثال نجد أن سفر التكوين يسلم بسفالة بعض الشعوب مقارنةً مع شعوب أخرى عندما يقول: "ملعون

---

١ – أبو يعرب المرزوقي, "**الثقافة الإسلامية – محاضرات في حوار الحضارات**", دمشق, المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق, ٢٠٠١, ص٣٥.

٢ – منظمة أونسكو," **العرقية إزاء العلم**" , مرجع سابق , ص١٣.

٣ – حسن أبو حمود, "**علم الاجتماع السياسي**", دمشق. منشورات جامعة دمشق, ٢٠٠٨/٢٠٠٩, ص١٩٩.

كنعان عبد العبيد يكون لأخوته"[١], وهكذا نرى أن يهوه التوراة يقسم الشعوب في العائلة البشرية الأولى بين سادة وعبيد فكان ميراث شعبه حقداً ضارياً على جميع الشعوب.

لقد انتشرت الفكرة العنصرية وتوطدت مع بدء استعمار أفريقيا, وزادت مع اكتشاف أمريكا والطرق البحرية إلى الهند عبر المحيط الهادي ومردّ ذلك إلى أسباب اقتصادية وإلى بروز الروح الاستعمارية وإلى عوامل أخرى على حدّ قول الدومينيكي الاسكتلندي جون ميجور: "فقد كان في نظام الطبيعة أن يكون بعض الناس حرّاً وبعضهم عبداً".في الحقيقة لا تعود عنصرية الغرب وعرقيته ضد الشعوب الآسيوية والأفريقية إلى العصر الحديث إنما ترجع إلى العصور الوسطى , بل وتمتد إلى ما قبل الميلاد, وهذه الدواعي تحركها روح العداء القديم المتأصل في الغرب إزاء الشرق.فالغرب يرى أن لا سبيل إلى تعايش سلمي بين الحضارة الغربية اليونانية الرومانية الراقية وبين العقلية الهمجية والبربرية الآسيوية الشرقية المتخلفة, ويظهر العداء بأقسى حدته ابتداءً من الحملات الصليبية الموجهة ضد الشرق العربي طوال قرون عدَّة, وفي التحالف المغولي الصليبي الَّذي عمل له الملك لويس التاسع.لقد تغلغلت هذه الروح العدائية في صميم حياة الغرب منذ قرون بعيدة إذ وصفوا أنفسهم بأنهم حملة رسالة إنسانية إلى العالم المتخلف مبتدعين نظرية سياسية حقوقية لتسويغ عدوانهم عرفت باسم (المسألة الشرقية) والتي يرجعها المؤرخون الغربيون إلى أول صراع قام بين الفرس واليونان, ويعتبرونها قد نشأت فعلاً منذ حرب هرقل مع كسرى عام ٦١٤م [٢].

هذا وقد نشأت المسألة الشرقية الجديدة في العصر الحديث لتعالج في نظر الغرب المشكلة البلقانية والمشكلة الإسلامية العربية ومشكلة الأقليات في الشرق[٣].

وقد تطورت المعتقدات العنصرية إلى مرتبة مذهب حقّ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر, بيد أنه كان من المرتقب في مرحلة قصيرة نسبياً أن يؤدي انتشار مبادئ الثورتين الأمريكية والفرنسية ونجاح الحملة ضد العبودية في إنكلترا إلى تخفيض حتى وإزالة المعتقدات العنصرية, ولكن ردة الفعل التي ظهرت خلال تطور أوربا صناعياً في بدء القرن العشرين كان لها تأثيرات مباشرة ومضرة في القضية العنصرية.

١ – جورجي كنعان, "**العنصرية اليهودية**" , دمشق, دار النهار للنشر, ط١, ١٩٨٣, ص٣٢.

٢ – أمين النفوري, "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحَّد**", دمشق, المكتبة الميدانية, ١٩٥٩, ص٣٨.

٣ – المرجع السابق, ص٤٣.

المبحث الثاني: أهم أشكال العنصرية .

المطلب الأول: الداروينية.

لم يضع داروين نظريته في الاصطفاء من فراغ, فهناك من سبقه ووضع الخطوط الأولى ممهداً الطريق أمام داروين ليكون لأبحاثه ونظريته الأثر الأكبر.فهناك بوفون عام (١٧٠٧ – ١٧٨٨) الَّذي أكد على تغير الأنواع ولو أنه لم يضع نظرية حقيقية للتطور إلا أنه زوّد علماء الطبيعة بأسباب جمّة للاعتقاد بتغير الأنواع .وجاء بعده لا مارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩) والَّذي عُدَّ بشكل عملي مؤسس البيولوجيا (علم الحياة) وهو من اقترح هذه التسمية عام (١٨٠٢) على العلم الَّذي يدرس الكائنات الحية, بل هو الَّذي افترض وجود تطور بيولوجي فوضع المبدأ القائل: " إن هذا التطور يسيِّرهُ تعارض القوى المنظمة مع القوى غير المنظمة...."[١].ثم جاء عالم الأحياء الإنكليزي داروين الذي نشر كتابه "أصل الأنواع" سنة ١٨٥٩, وقد استندت نظريته بقوة على الفكرة الأساسية القائلة:"إن الكائنات الحية كانت قد تطورت نتيجة التنافس أو نتيجة عملية الاصطفاء المستمرة والصراع من أجل الحياة". فالصراع بنظره أمر طبيعي بل هو نظام وشريعة بل أكثر من ذلك أيضاً إذ هو عامل ارتقاء , فلكي يسمو الإنسان عليه أن يظل خاضعاً لصراع عنيف, مبرزاً جدوى المعركة التي تتيح لذوي الموهبة الحسنة أن يستغلوا ضعاف المواهب, وهكذا في نهاية القرن التاسع عشر برز أناس يطالبون تحت راية الأفكار الداروينية بوجوب عدم مساعدة الأفراد غير المؤهلين اجتماعياً, فالأجدر بالتالي أن لا نعطّل الاصطفاء, بل ندع المجتمع يلعب لعبته الطبيعية, ونتقبل غلبة الأقوياء والقادرين[٢].

ويؤكد داروين أنَّ العمليات الوراثية التلقائية ذات فعالية كبيرة, حيث يدخل الانتخاب كحكم, عازلاً من الساحة تراكيب الجينات الأضعف تكيُّفاً في الظروف البيئوية السائدة, وبالتالي تسير العمليات الوراثية الأوتوماتية مع الانتخاب يداً بيد, يسيّرها تناقض صراعي, فتأخذ الجماعة بالابتعاد أكثر فأكثر مع كل موجة جديدة عن وضعيّتها الأولى مغيّرة وجهها الأول شيئاً فشيئاً....[٣] .

إن هذه الأفكار يستتبعها الإيمان من قبل العنصريين بأنه لما كان للحياة هدف تأمين انتشار المورثات فقد يقرر حاملو بعض المورثات القضاء على الجماعات التي تحمل مورثات أخرى, ويصرّون بالتالي على أن كراهية الآخرين آتية من مورث خاص, وبالتالي فإن النزعة العرقية والتنافس أمر طبيعي[٤].

---

١ – أميل نويل, " **الداروينية كما ترى اليوم** ", ترجمة محمد وائل الأتاسي , دمشق, وزارة الثقافة, ١٩٤٨ , ص ١٤ — ١٥

٢ – المرجع السابق, ص٤٦.

٣ – ب.م. ميدنيكوف, "**داروينية القرن العشرين**", ترجمة محمد أحمد شومان, بيروت, دار الفارابي, ١٩٨٢, ص٦٠.

٤ – أميل نويل, ," **الداروينية كما ترى اليوم**" , مرجع سابق, ص١٦٧ .

إن أفكار مالتوس ذات طابع عنصري , وتصبّ في نفس هذا الإطار إذ يقول : "فـإذا عـز الغـذاء وتكـاثرت الجماعة نشأ عندئذ سباق وبالتالي اصطفاء..." [١].

وبما أن عدد المواليد أكثر من عدد القادرين على العيش فمن الواجب إذاً كما يرى مالتوس أن يحصـل صـراع من أجل البقاء, فلو تم التكاثر دون أن يتم تدمير البعض لامتلأت الكرة الأرضية ولما اتّسعت لسـكانها, فيكـون الحل بالتالي عن طريق الصراع من أجل البقاء[٢].

ويرى الباحث أن مقولة داروين في الصراع من أجل الحياة قد استخدمت في تبرير الحرب والشطط في التنـافس ومع قدومه بدأ عصر جديد, وبدأت الأفكار المادية تنتعش, وبرز فلاسفة العنصرية بشكل أكبر مـن أي عصـر سابق. وفُتِحت الأبواب أمام أشكال مرعبة من التمييز العنصري والعرقي, ونشأت دراسـات مستفيضـة تشـيد باختلاف العروق البشرية وبمكانة الوراثة في مضمار الاجتماع البشري.

فهاهم مفكرو النازية الَّذين تمخضت عنهم أفكار أدت إلى تدمير أوربا بحجة أن الإنسان الآري هو الأرقى مـن الأجناس وعليه أن يرث الأرض بعد إنهاء الأجناس الأخرى, إذ طالب الفيلسوف الألماني نيتشه بعملية التطـور نحو الأرقى وذلك بإبادة الأجناس الأقل تطوراً بواسطة القوة, وسيفرد الباحث لأفكار النازية فصـلاً خاصـاً.أما مفكرو الإنكليز العنصريون فإنهم لم يختلفوا عن النازيين من حيث الجوهر فها هو هربرت سبنسـر قـد طالـب (بالبقاء للأصلح), وهذه نفس مقولة (الانتخاب الطبيعي)لداروين. وجاء الكثيرون غيره ليفسروا مهام الاسـتعمار على أنها كانت لتحضير سكان البلاد المتخلفين التعساء الَّذين هم في الدرجة الدنيا على سلم التطور, وجاء عصر فيكتوريا ملكة بريطانيا التي كانت سعيدة باغتصاب سيسيل رودوس لجنوب أفريقيا ونهب ثرواتهـا[٣], أمَّاعـالم الاجتماع الإنكليزي بيجورن كورتين فيتكلم عن العنف والمجاعة وكأنها ظواهر طبيعية, ويرى أن خطر ازديـاد السكان الكبير في البلدان المعدمة قد يكتسح الإنسان المتحضر وبالتالي فإن الأفراد الحاذقين والأنانيين فقـط هـم الَّذين يبقون, وبذلك يعطون جيناتهم كميراث إلى أجيال المستقبل. فأي تطور هذا الَّذي يأمل أن يكون الأناني هـو الباقي والمزدهر؟! [٤].

---

١ – أميل نويل, ," **الداروينية كما ترى اليوم**" , مرجع سابق, ص٣٦.

٢ – أندريه كرسون ," **داروين** " , ترجمة سلمى زيادة , بيروت ,المؤسسة العربية , دون ذكر عام النشر, ص ٦٩ — ٧٠ .

٣ – طالب الجنابي, "**نظرية التطور الداروينية خرافة باسم العلم**", بيروت, دار الأضواء, ١٩٨٩, ص٦١.

٤ – المرجع السابق, ص٦٦.

وتتابعت الدراسات ونشأت النظريات العرقية المختلفة فمنها القائم على أساس اللون, ومنها المستند إلى القياسات الفيزيولوجية, وأخرى قائمة على الأساس البيومتري الإحصائي.

فأبرز من قال بالنظريات القائمة على أساس اللون هما الألمانيان (آرثر دو غوبينو) و(هوستن ستوارت تشمبرلن) مؤكدَين في أبحاثهما على أن العرق الأبيض هو العرق الأسمى والأقدر على الخلق والإبداع واعتقدا أن اندثار الحضارات العظيمة إنما ينبع من اختلاط العرق الراقي بالأعراق الدونّية, وبالتالي فإن صفاء العرق هو الشرط الأساسي لاستمراره ومنع انحطاطه, وعندما وافق تشمبرلن على الاختلاط كان ذلك مشروطاً بشروطٍ خمسةٍ وهي:

١- وجود عناصر عرقية ممتازة في العرق.

٢- تزاوج هذه العناصر الممتازة فيما بينها.

٣- الاصطفاء والحيلولة دون تكاثر الأفراد, مع تسهيل تكاثر الأفراد المتميِّزين.

٤- اختلاط دماء هذه العناصر العرقية بدماءٍ جديدة.

٥- امتزاج الدماء المعروفة المعينة هو الذي يسمو بالشعب, ويؤدي أحياناً إلى خلق عرق جديد.

أمَّا النظريات ذات الاتجاه القياسي فأشهر من جاء بها هو (جورج فاشر دولابوج) الَّذي اعتمد في تدعيم نظريته على القياسات الفيزيولوجية والسمات الشكلية وتوصَّل إلى أن سبب بقاء الفقراء في أدنى درجات السلّم الحضاري والاجتماعي كان وليد انحطاطهم السلالي, وكذلك تحدَّث الألماني (أوتو أمون) و الدانماركي (جورج هانس) في نفس المبدأ, واستخلصا بأن أصحاب الجماجم الطويلة أوفر عدداً في المدن منهم في الأرياف, والفاتحون يقيمون بشكل عام في المدن. وتوصّلا إلى أن الآريين هم أصحاب الجماجم الطويلة[1].

ولم يخرج أصحاب الاتجاه البيومتري الإحصائي عن رأي سابقيهم في الوراثة والاصطفاء فـ(فرانسيس غالتون) و(كارل بيرسون) الإنكليزيان, وكذلك الإحصائي البلجيكي (جاك أدولف كيتله) توصلوا بعد إجراء إحصاءات على رجال علم وعلى رياضيين وموسيقيين وحكام إلى أن صفاتهم هذه ما هي إلا وراثية, وبأن العوامل البيولوجية هي التي تسيطر على تطور الإنسانية, ووحدها تفسّر نهوض الأمم وسقوطها, وكذلك التقدم العرقي والانحطاط[2].

وما هذه النظريات إلا بمثابة خرافة باسم العلم, فعلى الرغم من كل المزاعم بإعطائها الطابع المستند إلى افتراضات علمية لتسويغ نهب خيرات الشعوب, إلا أنها ليست سوى زعم مخالف للعلم, وقد كثرت الدراسات

---

١ – حسن أبو حمود , "**علم الاجتماع السياسي** " ,مرجع سابق , ص٢٠٣-٢٠٤.

٢ – عبد الكريم اليافي," **تمهيد في علم الاجتماع**", دمشق, مطبعة جامعة دمشق, ط٤, ١٩٦٤, ص٣٤٥-٣٤٦.

العلمية التي دحضت مثل هذه المزاعم وتصدى باحثون بالجملة لهذا الاتجاه اللا إنساني, فلون البشرة والشعر وطول القامة وشكل العظام, وغير ذلك تم دحضها , فكثير من الأقوام البدائية والعرق الأسود وأولاد الفقراء وما إلى هنالك تم الإثبات أنهم يمتلكون تلك الصفات التي حاول الدارسون العنصريون حصرها في العرق الأبيض. فهذا العالم الإحصائي الإيطالي (نتشيفورد) والدكتور البريطاني (برسونز) و(كارل بيرسون) وغيرهم الكثيرالّذين قاموا بدحض حجة من ادّعى أن العبقرية وقْفٌ على اللون الأشقر, بل قاموا أيضاً بإثبات العكس في كثير من الأحيان بعد تجاربهم العلمية والإحصائية المختلفة [1]. حتى أن هناك من حاول الوصول إلى إثبات علمي حقيقي لمثل هذه النظريات العرقية إلاّ أنه وجد أن هذه الادعاءات باطلة علمياً فعدل عن رأيه البدائي والأول فقد قام العالم الدانماركي (جوهانس) بتجارب كثيرة من أجل إثبات صحة تلك المزاعم, ولكنه كان يفشل دائماً في محاولاته فأعلن أخيراً يقينه بأن: "الاصطفاء الطبيعي ليس له أهمية مطلقة في عملية التطور كما كان يدّعي داروين" [2].

أما العالم (جفري كودمان) فيقول: "وبطريقة غير علمية تماماً أعطى داروين مغزى تسلسلياً لأجناس البشر المختلفة, إن هذا الشيء لا يتفق مع الحقائق التاريخية لحضارات وادي الرافدين ومصر وغيرهم" [3].

إن ما وصفه داروين وأتباعه بالتطور لا يمكن وصفه من وجهة نظر العلم إلا بالانحراف عن التطور وعن الوصول إلى الغاية النهائية, وفي الواقع فإن الإنسان بذلك يحاول الرجوع إلى البداية مشغولاً بتدمير نفسه وقتل بعضه بعضاً سواء ضمن المجتمع الواحد أو بين الأمم المختلفة, وما هذا إلاّ تبذير عظيم للطاقات التي يمكن استعمالها في دفع عملية التطوير إلى الأمام, بدلاً من صناعة السلاح الذري لتدمير جميع الكائنات على الأرض وتدمير نفسه وبهذا يكون قد خان التطور وانحرف به بعيداً.

هذا ما أكده تقرير جامعة (ستانفورد) الأمريكية عام ١٩٧٠/١٩٧٥ حين قال: " إن الأموال التي تُنفَق في سبيل سباق التَّسلُّح لو أنها أُنفقت على الزراعة ومشاريع التنمية في العالم الثالث لكان ذلك كفيلاً بتأمين الاحتياجات المطلوبة لإعالة عشرة أمثال عدد السكان الموجودين في العالم من خلال زيادة مردود المساحة المزروعة في العالم والتي لم تُستثمَر بعد".وبذلك تكون حصَّة الإنسان الواحد أكثر من هكتار ونصف من الأراضي المنتجة في

---

١ – عبد الكريم اليافي," **تمهيد في علم الاجتماع**" ، مرجع سابق, ص ٣٧٦-٣٧٧.

٢ – ابن خليفة عليوي, "**الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء** ", دمشق, مطبعة خالد بن الوليد, ١٩٧٧, ص٤٨.

٣ – طالب الجنابي," **نظرية التطور الداروينية خرافة باسم العلم**", مصدر سابق, ص٦٢.

العالم [1]. وما الحروب والكوارث إلاَّ نتيجة حقيقية لمزاعم الذين يعدّون أن مراحل النمو الاقتصادي هي من وعي بعض الشخصيات البارزة وإرادتهم إذ يتسارعون بغية نهب الموارد من مواطنها الأصلية.

إن أحد وجوه هذه النظرية العنصرية هو عداء الإنسان الأبيض للشعوب ذات الألوان الأخرى, والتي ظهرت في ألمانيا على شكل النازية, وفي أمريكا على شكل القنبلة الذرية ضد هيروشيما وناكازاكي, وفي أفريقيا على شكل عنصرية بغيضة ضد السكان الأصليين, وفي أستراليا التي انقرض سكانها الأصليون, وفي فلسطين حيث يمارس الصهاينة أبشع أنواع العنصرية ضد سكانها العرب حتى اليوم .

وأخيراً فإن فكرة العرق التي روّجها الأوربيون كانت وبالاً على البشرية, وانقلبت نتائجها السيئة ضدهم, ولم يكونوا بمنأى عن خطرها, وأكبر دليل على ذلك الحرب العالمية الثانية والخراب الَّذي أودت به على أوربا.

وبعد هذا العرض الوجيز لجوهر النظرية الداروينية والنظريات التي تلتها واعتمدت عليها لا بد من التنويه إلى أن هذه النظرية ما هي إلا الشكل البيولوجي للفلسفة البرجوازية التي تعدّ التنافس الحر هو الأساس لها, وبالتالي تنازع البقاء من أجل إرضاء الحاجات المادية.

---

١ – حسن أبو حمود, " **علم الاجتماع السياسي**", مرجع سابق, ص ٢٣٤.

المطلب الثاني: الفاشية.

كانت إيطاليا أول بلد ظهر فيها حزب يطلق على نفسه اسم الفاشي, وهذه الكلمة الإيطالية (فاشو) تعني حزمة من العصي الخشبية, أي شيئاً يصعب كسره إن بقيت مجتمعة, ويظهر في وسط هذه الحزمة فأس ظاهر الرأس يرمز إلى القائد أو الزعيم الواحد أو إلى الدولة المتحدة تحت إمرة زعيم واحد.وقد استخدمت هذه الكلمة (فاشو) أول مرة عام ١٨٩٠ من قبل عمال مناجم الكبريت في صقلية لكن بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت جماعات وطنية يمينية تطلق على نفسها تسمية (فاشية النضال) أو (جماعات النضال)[١].

وتعود أول بداية رسمية للفاشية إلى سنة ١٩١٧ حين أسس موسوليني حزب (فاشيو دي كوميـاتي منتو) في ميلان وكان منهاج هذا الحزب خليطاً من المبادئ الشوفينية والجمهورية, وكانت الفاشية خلال هذه الفترة في دور التهيّؤ ولم تكن ذات شأن خطير, إلى أن تهيّأت الظروف فاستلم الفاشيون الإيطاليون الحكم في ٢٨ تشرين الأول ١٩٢٢ من خلال الانقلاب الفاشي المدبّر منذ البداية حتى النهاية من قبل البورجوازيين والطبقات الحاكمة ومعونة زعماء العمال والإصلاحيين. أما في ألمانيا فقد ظهرت بذور الفاشية عام ١٩١٨ حين قام رئيس الجمهورية الجديد (فريديرك ايبرت) بسحق الثورة الاجتماعية التي قادتها البروليتاريا الألمانية[٢].

وهكذا فإن البرجوازية حين وجدت نفسها أمام خطر الثورات الشعبية وما تؤدي إليه من انقلابات اجتماعية لا تبقي على امتيازات طبقية, قامت هذه البرجوازية بالاستعانة بالزعماء الإصلاحيين فأوقفت تلك الثورات بمختلف وسائل العنف والإرهاب وأقامت الديكتاتورية الفاشية.

لقد وُصِفت الفاشية من قبل اللجنة التنفيذية في القيادة العليا للأحزاب الشيوعية "الكومنترن" بأنها (الديكتاتورية الإرهابية التي ترأستها العناصر الموالية للرأسمال الضخم) [٣].

فالفاشية تعزز سيطرة رأسمال المال الكبير وتقدم له أكبر قدر من الربح الاقتصادي وتخنق الطبقة العاملة وتستأصل منظماتها[٤].

يقول السيناتور الإيطالي امندولا وهو يحتضر: " إن الفاشيين ألغوا البرلمان ففقدت حريتي في الكلام، وألغوا حرية الكتابة والنشر فلم أعد أستطيع أن أكتب، وها هم قد قتلوني وحرموني الحياة, وهذا كله لا يساوي شيئاً

---

١ – ستيوارت هود وليتزا جانستز," **الفاشية والنازية**"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، إصدار المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة, ط١، ٢٠٠٣، ، ص١٢.

٢ – عبد الرحيم شريف، "**الفاشية عدوة الشعوب**"، بغداد، مطبعة النقيض الأهلية، ١٩٤٢, ص١٠-١١ .

٣ – المرجع السابق ، ص٢٣.

٤ – تروتسكي – مانديل، "**نصوص حول الفاشية**"، ترجمة كميل داغر، بيروت، دار الطليعة، ط١،آذار, ١٩٨١، ص٦٢.

عندي, البلاء الأكبر أنهم سينتهون بقتل وطني...". إن الدولة عند الفاشيين يجب أن تكون ذات صلاحيات شاملة, فكل حياة منفردة يجب أن تختفي لتحل محلها الحياة الجماعية داخل الأمة, وعلى الدولة أن تتدخل في كل شيء حتى في الضمائر والعقول لأن الجماهير على حدّ تعبير موسوليني "كقطعان من الماشية ... لا تقدر أن تحكم نفسها, فيجب أن تقاد بمزامير التهييج". أما هتلر فقد قال: " الإنسان شرير منذ ولادته ولا يمكن أن يحكم بغير القوة, فيجب التذرع بكل الوسائل في حكمه، ومن الضروري التوسل بالكذب والغدر وبالقتل أيضاً إذا اقتضت السياسة" [١].

لقد ألغى موسوليني الحكومة البرلمانية مع حلول عام ١٩٢٦, وكانت هناك رقابة صارمة وأعطيت سلطات واسعة للبوليس السري وقامت محاكم خاصَّة بمحاكمة السجناء السياسيين, بالإضافة إلى إعدام بعضهم وتمّ الحكم على الكثير منهم بالسجن فترات طويلة كالمفكر أنطونيو جرامشي الَّذي قضى سنوات طويلة في السجن ومات فيه, كما أُرسِل بعضهم إلى منفى داخلي في مناطق بعيدة[٢].

وأعلن موسوليني أنه سيعود في أصالته إلى جذور ميكافيلية، فميكافيلي هو أول من أوجد كلمة الدولة وهو من حدد صفات الأمير بأنه أعلى من بقية البشر وبأنه فوق الخير والشر وأعلى من الخداع والغش ولا تقف المبادئ الأخلاقية حائلاً دون تحقيق أهدافه، فلا بأس من الشر عندما يضطر الأمر لأنّ الغاية تبرر الوسيلة. وهكذا فإن للأيديولوجيا الفاشية طابع تأليه الدولة وهي التي أعطت أهمية لتمجيد هذه الدولة التي لا يساوي الفرد خارجها شيئاً, وهذا ما يخدم مصلحة الرأسمال الكبير من أجل دور الدولة التدخلي في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية ويمتد هذا إلى مبدأ (تمجيد الزعيم)[٣].

ولم تقتصر الفاشية على إيطاليا وألمانيا بل فقد نشأت أحزاب فاشية بين الحربين العالميتين في دول أخرى مثل (النمسا, بلجيكا، بريطانيا, فرنسا ، هولندا، المجر، إيرلندا، ليتوانيا، النرويج, البرتغال، رومانيا، إسبانيا)[٤].

وقد مرّت هذه البلدان الفاشية بمثل تلك الأدوار التي مرّت بها الفاشية في إيطاليا وألمانيا مع اختلاف في بعض التفصيلات، ولكن بعض البلاد التي كانت فيها البرجوازية ضعيفة ولم تستطع أن تخنق الثورات التي جابهتها

---

١ – عبد الرحيم شريف، " **الفاشية عدوة الشعوب**",مرجع سابق ، ص٣ –٤.

٢ – ستيوارت هود وليتزا جانستز، " **الفاشية والنازية**",مرجع سابق ، ص٣١.

٣ – وليام رايخ، نيقوس بولتراس، **"دراسات في الفاشية"**، ترجمة جوزيف سماحة، بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢ , ١٩٨٨، ص١٩٧.

٤ – ستيوارت هود وليتزا جانستز," **الفاشية والنازية**"، مرجع سابق ، ص١٣.

قامت بالاستعانة بالتدخل الأجنبي, ولم تتورّع عن تسليم أوطانها إلى الأيدي الأجنبية, وهـذا مـا فعلـه فرانكـو وأتباعه في إسبانيا، ومنرهايم في فلندا، وبيتان وصحبه في فرنسا(١).

ولم تنتهِ الفاشية بانتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد أعادت الحركات الفاشية تنظيم صفوفها بسرعة بعـد انهيـار النظم الشمولية التي سيطر عليها السوفييت سابقاً في أوربا الشرقية, فظهرت في المجر جماعات فاشية مستخدمة الصليب الحديدي، وفي تشيكوسلوفاكيا ظهرت من جديد الجماعات المؤيدة للراهب الفاشي (تسو)، أما في روسـيا فقد نشأت منظمة قومية تحالفت مع حركة الشعب الأرثوذوكسية الروسية، وأحيـت حركـة الحريـة الروسـية الصليب المعقوف، كما انبثقت جماعات النازية الجديدة في أوربا الغربية. وفي بريطانيا برزت جماعات الفاشـية الجديدة, وقد جعلت هدفها قتل المهاجرين السود من البحر الكاريبي في الخمسينيات، كما أن حوالي سبعين ألفـاً من الحوادث العنصرية تحدث كل عام في بريطانيا يبدأ ترتيبها من التحرّشات الصغيرة حتى إلقاء القنابل(٢).

وفي عام ١٩٨٢ تأسس الحزب القومي البريطاني وأصبح منذ ذلك الوقـت أكثـر جماعـات الجنـاح اليمينـي المتطرف أهمية لأنه حزب نازي صريح تقوده شخصيات لديها نزعات إجرامية خطيرة ابتداءً من صنع القنابـل إلى تنظيم جماعات شبه عسكرية غير قانونية حتى حيازة أسلحة نارية, والإساءات بسـبب العلاقـات العرقيـة وغيرها.وهناك أيضاً هيئة مؤثرة أخرى تأسست عام ١٩٧٤ وهي (تحالف القديس جورج), وكانت تقوم بحمايـة الفاشية الألمانية كما اتّهمت بالتورط في أنشطة إرهابية في إيطاليا(٣).

أمّا في فرنسا فبرز اليمين المتطرف في الستينيات من القرن الماضي, حيث أصبح الأفارقة والجزائريون تحـت وطأة الهجمات العنصرية، وفي عام ١٩٦١ قام موريس بابون رئيس الشرطة في باريس بقتل مئتي متظاهر مـن أنصار السلام في الجزائر, كما انبـثقت جماعات إرهابية أخرى بلغت هجماتهم ذروتها في الثمانينيات من القرن الماضي.

وفي سبعينيات القرن العشرين شهدت إسبانيا انبعاثاً جديداً للعنف الفاشي, وقد أعلن الحزب القـومي الاشـتراكي الإسباني أن هتلر وموسوليني كانا مدافعين عن الحضارة الغربية(٤).

وظلّت الحركة الاجتماعية الإيطالية قوية في الجنوب الإيطالي المتخلّف, أمّا في مناطق الشمال الصناعية الغنيـة المتقدمة فقد بدأ يظهر الأسلوب الفاشي للعصابات منذ الثمانينيات, وهذه العصابات لم تمثّل فقط ازدراء للحكومـة

---

١ – عبد الرحيم شريف ,"**الفاشية عدوة الشعوب** "، مرجع سابق ، ص٢١.

٢ – ستيوارت هود وليتزا جانستز," **الفاشية والنازية**"، مرجع سابق ، ص١٥٦– ١٥٧ .

٣ – المرجع السابق ، ص١٦٢.

٤ – ستيوارت هود وليتزا جانستز," **الفاشية والنازية**"، مرجع سابق ، ص١٣١.

البرلمانية بل أخذت تستهدف الإيطاليين في الجنوب، ويأتي فيليبوتوماس مارينتي مؤسس المدرسة المستقبلية في إيطاليا وهو الَّذي مجّد جماليات الحرب وإلقاء القنابل في الجوّ قائلاً: "سوف نمجّد الحرب – الصحة الوحيدة للعالم – والنزعة العسكرية...."[1].

لقد كان هناك ظهور مماثل للفكر والنشاط الفاشي في الكثير من دول أوربا فهناك بذور انبعاث محتمل للفاشية قائمة في الوباء المنتشر في بعض البلدان الغربية الأمريكية والمتكوّن من الذهنية العنصرية والمعادية للأجانب (السود ، الشغيلة المهاجرين، العرب....), وفي اللامبالاة المتنامية تجاه الاغتيالات السياسية في بلد كالولايات المتحدة, وفي الضغينة غير العقلانية حيال تلك الأحداث غير الودية المتكررة أكثر فأكثر في الحلبة الدولية، وفي الحقد اللاعقلاني على الأقليات الثورية وغير ذلك....[2]

كما استهدفت تلك العصابات الأفارقة والمسلمين في تلك البلدان، وهكذا فقد حذّر كبير أساقفة (رافينا) من (الأسلمة) التي تستخدم كمصطلح لليمين المتطرف. أليس هذا ضرباً واضحاً من التعصّب العنصري؟[3].

وهكذا فإنَّ الفاشية, وإن تعددت أشكالها عبر المراحل المختلفة التي مرَّت بها وضمن البلدان التي نشأت فيها تبقى في جوهرها الديكتاتورية الإرهابية العلنية لعناصر الرأسمال المالي الأكثر تخلفاً والأكثر شوفينية وإمبريالية, إنها تربية روح الاعتداء الممزوجة بالانقياد الصامت والأعمى, فهي تستخدم أكثر الأساليب وحشية ودموية, وتقوم بغرس وتغذية الوضع بالخوف والشك والاشتباه والغدر. فلقد عززت سيطرة الرأسمال المالي الكبير لكي تخنق الطبقة العاملة وتستأصل منظماتها, واستخدمت وسائل العنف والإرهاب بهدف إيقاف كل ثورة شعبية ضدها. كما أنها ألغت البرلمان وحرية الكتابة والنشر وما شابه ذلك, وتم الحكم بالإعدام على الكثير من المفكرين السياسيين الذين خالفوا مبادئها, فالدولة عندهم ذات صلاحيات شاملة, وعليها أن تتدخل في كل شيء حتى في الضمائر والعقول.

وقد وظف موسوليني الأفكار الميكافيلية ومنها (الغاية تبرر الوسيلة), ومبدأ (تمجيد الزعيم) لتحقيق أهدافه الفاشية الإرهابية داخل إيطاليا وخارجها. وما الفاشية الجديدة التي ظهرت في ثمانينيات القرن العشرين سوى استمرار لتلك المبادئ والأساليب التي اتبعتها الفاشية الإيطالية منذ ظهورها, فقد رفعت هذه الفاشية الجديدة من أولى شعاراتها وهي تمجيد الحرب والنزعة العسكرية, جاعلةً من معاداة الأفارقة والمسلمين أحد أهم أهدافها.

---

[1] – ستيوارت هود وليتزا جانستز," **الفاشية والنازية**"، مرجع سابق ،ص١١٣-١١٤ .

٢ – تروتسكي ماندبل، " **نصوص حول الفاشية**", مرجع سابق ، ص٦٥.

[3] –ستيوارت هود وليتزا جانستز،"**الفاشية والنازية** ", مرجع سابق ,ص١٤٦.

المطلب الثالث: النازية.

إنَّ ادعاء التفوق العنصري للجنس الآري لم يكن فكرة ألمانية حديثة, بل تمتد جذورها إلى فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر, وقد تأثر بهم هتلر وتبنّى وجهات نظرهم. ومن هؤلاء الفلاسفة (فريدرك ليست) و(آرثر دو غوبينو) صاحب نظرية تفاوت الأجناس البشرية, و(ريتشارد فاجنر) و(فريدريك نيتشه) و(هوستن تشمبرلن) و(جورج شوبنير) و(فيخته).... وغيرهم. وكلهم يجمع على التفوق العنصري للشعب الألماني وبأحقية الزعامة للمواطن الألماني المحافظ على سلالته الآرية من تسلل واختلاط العناصر غير الآرية[١].

فمفهوم النازية للشعب يعني الشعب العنصري الَّذي ينشأ بواسطة التقاء أفراد الدم الواحد. إن نظرية التفوق العنصري خدمت إلى حد كبير انتشار الدعوة النازية, وكذلك نظرية المجال الحيوي, في الوقت الَّذي كانت فيه ألمانيا مهزومة وتعاني الاحتلال, فنظرية المجال الحيوي لـ تشمبرلن هذه دعت إلى وحدة ألمانيا الكبرى وإلى التوسع في مجالها الحيوي, وذلك لا يتحقق إلا بالقوة لأن الحدود الألمانية لم تعد تتلاءم مع الحاجات الاقتصادية والجغرافية والعسكرية لألمانيا.

وبالعودة إلى تاريخ الجيش البروسي يُلاحظ أنه تاريخ طريف, فلقد كان هدف فريدريك غليوم إمبراطور بروسيا هو تقوية الجيش لاعتقاده أن الجيش هو الطريق الوحيد لإقرار الأمن في بروسيا ولاحتلال بعض الأراضي إذا اقتضت الضرورة, وهو القائل: "لا يكون الفتح بالعلم وإنما بالسيف" وهو الَّذي غيَّر عادة أن يتألف الجيش من المتطوعين فقط, فقد كانت تكاليف التطوّع باهظة فأنشأ الفكرة القائلة: "إن كل سكان الدولة ولدوا لأجل السلاح", ومن هنا نشأت فكرة الخدمة الإجبارية وظهر مبدأ الجيوش العظيمة, وهذا أمر جديد لم يكن موجوداً قبل القرن الثامن عشر, وقد تطور الأمر بالشعب الألماني حتى أنه أصبح يرى في دمه حب الحرب وبأن الحرب صناعته وغوايته وفخره, وهذا ما أكده أحد رجالات الألمان الكبار وهو (موللر فان دان بروك) بقوله: "خلقنا لنزعج العالم على الدوام"[٢].

---

١ – آري: من اللغة السنسكريتية ومعناها السيد, استخدم هذا المصطلح للتعبير عن الشعوب الهندو–أوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة, وقام المفكرون العرقيون الغربيون بتطوير هذا المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس يتسم بالكمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي وبتفوقه على الأجناس الأخرى.

٢ – أدمون فرمي, "**أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**", ترجمة خيري فخري, دمشق,دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر, ١٩٥٢, المقدمة.

ورأي نيتشه واضح في هذه المواضيع, فهو يؤكد أن الألماني ذو شخصية مفطورة على حب النضال وحب النصر, وهو نضال النفس النقية الصافية ضد القوى الشيطانية الهدامة. وعندما لجأ المسؤولون الألمان إلى التسامح – منذ أواخر القرن التاسع عشر, بعد الأخذ بنصائح عملاء الماركسية اليهود, واعتماد ألمانيا بالتالي على التجارة بدل التوسع, ظناً منهم أن استعمار العالم اقتصادياً وسلمياً سيضع حداً لسياسة العنف[1] – وقف أقطابها ومفكروها وفلاسفتها ضد هذا المبدأ, فهذا توماس مان القائل: "إن ألمانيا المتغربة انصرفت إلى نواح ليست في الأصل من طبيعتها, وانصرفت إلى حب الديمقراطية, ومدت يدها إلى التسامح الإنساني, ونسيت أن وحدتها ما كانت لتقوم لولا أنها أهانت فرنسا وأذلتها, مؤكداً على أن فرنسا وإنكلترا شعبان منحطان لا خير يرجى منهما في الثورة الألمانية الكبرى"[2].

ويلتقي مع توماس مان قطب آخر من أقطاب النازية وهو(موللر فان دان بروك) الَّذي بيَّن أن "العرق الشمالي القديم لم يبقَ منه سوى الشعب الألماني, وذلك بعد أن قطعت كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا صِلاتها بأم الشعوب ألمانيا, فأصبحت الجرمانية بالتالي موكولة بأمرها إلى ألمانيا وحدها, فلينقلب هذا الشعب الألماني إلى العرق الشمالي ما وسعه مداه وإذا فعل أصبحت زعامة أوربا حقاً من حقوقه[3].

إن كبار الفلاسفة الألمان يجمعون على أن ألمانيا وحدها تستطيع إنقاذ البشرية وإيجاد حياة سعيدة جديدة على هذه الأرض للإنسانية جمعاء, ويردّون أسباب ذلك إلى أن الألماني يستطيع أن يؤدي هذه الرسالة لتوافر صفات خاصَّة به تضعه في أعلى مستويات البشر.

فهذا المفكر كيسرلنغ يرى أن الألماني رجل موضوعي فهو إما ليّنٌ طائعٌ للأوامر محصور في مهنته, أو رجل مفكر صاحب تأملات وأحلام لا نهاية لها, أو تابع للعلم والصناعة العقلانية, أو طامحٌ ذو نظرة فكرية. أما فاليتو راتينو فيقول:"إن الألماني هو ذلك المفكر الَّذي لا يبالي ويحمل في صدره الشجاعة كاملة غير منقوصة ويستطيع عن طريق مثاليته أن يتوصل إلى حياة موضوعية واقعية مدروسة"[4].

والألماني عند نيتشه هو عنصر متفوق إلهي قدّر عليه أن يدافع عن الحضارة التي ينتمي إليها ضد الأخطار الخارجية وقدّر عليه أن يؤمّن لها المدى الَّذي يجب أن تنتشر فيه.

١– أدولف هتلر, "**كفاحي**", بيروت, دار الكتب الشعبية, ١٩٧٥, ط٢,ص ٢٢

٢– أدمون فرمي, "**أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**", مرجع سابق, ص٤٦.

٣ – المرجع السابق, ص١١٥.

٤ – المرجع السابق, ص٣٨–٣٩.

بناءً على هذه الأفكار تمخَّض لدى مفكري ألمانيا وقادتها مبدأ القوة وتمجيدها, وبأن القوة عليها مدار الأمور في هذه الكرة الأرضية, وما عداها فساقط في الحساب لا يؤبه له.

فالمفكر أزفلد اشبنجلر أحد كبار فلاسفة النازية يوضّح أن الحياة حرب دائمة لا هدنة فيها ولا سلام, والشعب المنظم يوجد لنفسه مكاناً بين الشعوب ويفرض نفسه عليها لأنه على حال من اثنين, إما مدافع عن نفسه أو مهاجم, فالحرب قائمة على الحالين, وهو موجود بها لا محالة, وعلى دستور الدولة أن يكون دستور المحارب, فالحرب شيء مبدع وهي ينبوع لكل شيء عظيم ونبيل وهي ضرورة من ضرورات وجود الدولة ووظيفة أساسية من وظائفها, وإن الخراب والتدمير والكوارث التي تحدثها الحرب في الحياة المدنية وحياة الفرد لا تساوي شيئاً أمام القيم العليا لوحدة الجماعة الحيّة التي تأتينا الحرب بها [١].

يقول هتلر: "إنه من المنطق أن يقوم العنصر الَّذي لديه رسالة مقدسة بتأدية رسالته, وعلى العنصر الممتاز المختار أن يستولي على جميع ثروات الأرض, إن هذا العنصر هو العنصر الألماني الممتاز, ووحدة اللغة لا تكفي ولكن وحدة الدم هي الأصل وهي التي ينشأ عنها الأمر القاطع"[٢], "فالمحافظة على سلامة العرق وذلك بصون نقاوة دمه تأتي في طليعة القضايا الكبرى, فإن فسد دم عرق من الأعراق نتيجة الاختلاط فسرعان ما تتفكك عرى الوحدة الروحية وتنهار قوة الإبداع وصروح الحضارة"[٣]. ومن واجب الدولة الجرمانية بنظر هتلر أن تمنع كل اختلاط جديد, فالإنسان له حق مقدّس واحد هو السهر على بقاء دمه نقياً طاهراً ليتمكن من صون الحضارة ومقوماتها, وعلى الدولة العنصرية أن ترفع مستوى الزواج لتعيد إليه قدسيته كمؤسسة تهدف إلى خلق كائنات على صورة الله وأمثاله, وإلاّ كمسوخ تشبه القرود.كما أنه على الدولة العنصرية أن تربي النشء على فكرة أن شعبها متفوق على سائر الشعوب وستعيد إليه إيمانه بمقدرات وطنه والثقة بمستقبل أفضل[٤].

ويضيف مبرراً قيام الحروب بأنَّ سُنّة الطبيعة تفسح مجال البقاء للأقوى وبأنها تثأر ضد أي تحدٍّ يخالف هذا المبدأ فتسلط الأقوياء الجديرين بالحياة على الضعفاء الخاملين. وعندما نكافح من أجل كياننا لا يبقى هناك مجال للاعتبارات الإنسانية لأن هذه الاعتبارات هي من صنع مخيلة الإنسان, والطبيعة لا تعترف بها.وبرأيه أن حدود

١- أدمون فرمي, "**أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**", مرجع سابق, ص٥٨.

٢- المرجع السابق, ص٤٨٣.

٣- أدولف هتلر, "**كفاحي**", مرجع سابق, ص٥١.

٤ – المرجع السابق , ص٦٦.

الدول هي من صنع البشر, وتبديلها يتم على أيدي البشر, وأعداء التوسع يتناسون أن ما من شعب في هذا العـــالم تمكن من امتلاك شبر واحد من الأرض بفضل احترامه لحقوق الغير وتقيّده بالقوانين الموضوعة(1).

ويطالب ألفريد روزنبرغ (الَّذي يعدّ المؤسس الحقيقي للنظرية العنصرية) دول أوربا كلّها أن تتبـــع ألمانيـــا فـــي نضالها ضد العروق الأجنبية, فالتعاون بين الشعوب الأوربية يجب أن يتم ولكن على أساس الفكرة الجرمانية(2).

كما يلتقي المفكر الألماني مولكته مع هتلر إلى حد بعيد عندما مجّد الحرب قائلاً:" إن أساليب القتال العنيفـــة هـــي أكثر الأساليب إنسانية لأنها تعجّل في وضع حد للحرب. والنضال من أجل الكيان ينفي كل اعتبـــار جمـــالي"(3).

ويعود هتلر ليؤكد أن العرق الآري هو رأس الإنسانية وتاجها, ولم تنهض اليابان نهضتها المعروفة إلا بتـــأثيرات الآرية كما هو الحال في بروسيا, وهناك عروق مبدعة تحمل الحضارة فقط وليس بالإمكان إبداع حضارة حقيقية إلا عن طريق الحرب(4).

ويقول أيضاً: "إن التاريخ العام ما هو إلا نضال دائم بين العروق المختلفة, والحضارة الشـــمالية المنبعثـــة عـــن العرق البيض هي التي أخرجت للعالم المحاربين العظام فغزوا العالم أجمع وصهروا جميع الحضارات العليا في الأرض الألمانية, والجرمانيون هم الَّذين رفعوا الشعوب الأوربية, وعنهم تولدت جميع عناصرها الممتازة, كمـــا أن لألمانيا رسالة قدسية إن أدّتها كاملة استطاعت إنقاذ العرق الأبيض"(5).

أما هتلر فقد راح يصف فتوحاته في بدايات الحرب العالمية قائلاً:" قد يتّهمني المرء بأنني مولع بالحرب, وإنـــي لأرى مصير جميع المخلوقات مرتبط بالصراع, وليس في وسع المرء إذا لم يكن يقبل بالهبوط والتـــدهور إلاَّ أن يحارب ويصارع وليس للذكاء والحساب أي ثمرة هنا, فالحل يجب أن يتم بالسيف".من هنا راح هتلر يتفـــق مـــع ستالين في ملحق سري بينهما في الثامن والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٣٩ على تقسيم بولندا بينهما لكي يـــتم القضاء على حرية هذه البلاد وثقافتها ووجودها القومي.هذا بالفعل ما حدث وما أكده الحاكم العام هـــانز فرانـــك عندما قال: "لو أمرت بتعليق إعلان واحد عن كل سبعة من البولنديين الَّذين أعدموا لما كانت هناك غابات كافيـــة

---

١ – أدولف هتلر, "**كفاحي**",مرجع سابق, ص١٤٥.

٢ – أدمون فيرمي," **أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**", مرجع سابق, ص ٢٠٣ .

٣ – أدولف هتلر, "**كفاحي**",مرجع سابق , ص٢٨.

٤ – المرجع السابق, ص١٩٨.

٥ – أدمون فرمي, "**أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**" , مرجع سابق, ص١٩٠ .

في بولندا لصناعة الورق اللازم لهذه الإعلانات", مبيناً عمليات الإبادة والإعدام بالجملة التي كان ينــوي القيــام بها لمجموعات أخرى من المثقفين[١]

أما هتلر الَّذي لا يعرف أية مبادئ أو قيم كان قد تراجع عن تحالفه مع ستالين بعد حوالي عام ونصــف لــيعلن بشكل هو في غاية التناقض والدموية في آذار عام ١٩٤١ في مؤتمر حضره كبار قادة الميــدان بــأن الحــرب ستشنّ على روسيا وستكون من النوع الَّذي لا تتبع فيه أصول الشهامة والفروسية, ويجب أن تكون من نــوع لا رحمة فيه ولا مثيل له, فهذا الصراع صورة للخلافات العقائدية والعنصرية[٢].

وكذلك الأمر في بريطانيا وفرنسا, حيث أخذ هتلر يبتهل إلى الله أن يهب الفهم للشعوب الأخرى لتدرك مــا فــي الحرب من ضير وأن يحملها على التفكير في نعم السلام, وراح يخاطب بريطانيا وفرنسا بأنه لــيس ثمــة مــا يستحق أن يحارب المرء لأجله, مؤكداً أن التاريخ العالمي علّمنا أنه لا يمكن أن يكون هناك منتصران بل عــدد كبير من الخاسرين دوماً, وبأنه من المنطق كل المنطق المبادرة إلى الحل قبل أن يتعرض الملايين مــن النــاس للموت والبلايين من الثروات إلى الدمار. وبعد يوم واحد من تأكيد هتلر لبريطانيا بعقد صلح معها دعا قادته فــي فروع القوات المسلحة وأبلغهم قراره بالهجوم في الغرب بأسرع وقت ممكن بعد أن تأكد له أن الجيوش الفرنسية والبريطانية ما زالت مفتقرة إلى الاستعداد[٣].

فهدفه من هذه الحرب هو التصرف عسكرياً وبصورة نهائية بالغرب أي تحطيم ما لدى الدولتين الغــربيتين مــن قوة وطاقة.

وبموجب هذه الرسالة المقدسة الحضارية التي دعت إليها النازية وجدت أن عليها أن تعيد تربية الــنشء تربيــة عنصرية, فقامت الحكومة الألمانية بصبغ ألمانيا بالصبغة النازية, وعمدت إلى تكوين ثقافة جديدة تحكمها المبادئ النازية, إضافة للتخلص من التأثيرات غير الآرية, فعملت هذه الحكومة الجديدة على هدم الثقافة القديمة وإقامــة الثقافة النازية, واتخذت التدابير التي منعت أي مؤلف ذي شهرة من طبع أي كتاب له إلا بعد الاطلاع عليه مــن قبل جهات الحكومة وموافقته لأفكار النازية, وما إن شعر كثير من الكتّاب بالتهديد تركوا ألمانيا وأخذوا ينتقــدون

---

١ – وليام شيرر," **تاريخ ألمانيا الهتلرية**", تعريب خيري حماد, بغداد, منشورات مكتبة المثنى, ط٣, شباط, ١٩٦٦, ص ٦٩– ٧٩.

٢ – المرجع السابق, ص ٣٧٨

٣ – المرجع السابق, ص ٣٥– ٣٦.

الرايخ الثالث وينبّهون العالم إلى خطره من خلال كتاباتهم باللغة الألمانية في الدول التي هاجروا إليها, أمّا الكتّاب الّذين اختاروا أن يبقوا داخل ألمانيا بعد عام ١٩٣٣ فقد اختاروا الهجرة والتغرّب عن أدبهم[١].

أمّا الصحافة فأصبحت توّجه للأغراض السياسية والدعائية والترويج للأفكار النازية والدعوة إلى معاداة غير الآريين, وتعبئة المشاعر ضد الشيوعيين, إضافة لنشر مقالات الدعاية الخارجية ضد الدول التي تختلف ألمانيا معها. وتم إنشاء وزارة للدعاية, ووضع هتلر الغرض منها في إظهار قيم الشعب الآري وتنفيذ برنامج الحزب, فالإذاعة مثلاً أصبحت تعني صوت ألمانيا, وأصدرت ألمانيا أمراً بأن تحتكر الدولة صناعة أجهزة المذياع وروّجت طرازاً أسمته مذياع الشعب وباعته بثمن زهيد طامحةً في أن تجعل في متناول الشعب أجهزة ضعيفة لا تستطيع التقاط ما تذيعه المحطات البعيدة, كما عمدت إلى تشويه ما تذيعه المحطات الأخرى وخاصَّة الروسية حتى يتعذر سماعه, وأنشأت أيضاً محطات إذاعية تخاطب من خلالها الألمان خارج ألمانيا وتروّج لفكرها النازي, ولم تكن السينما والأفلام السينمائية والفنون الجميلة والموسيقى بأحسن حال من سابقاتها, حيث تمّتْ دعوة صانعي السينما لإنتاج أفلام تخدم النظام الجديد مما أدى إلى رحيل معظم صانعي السينما من ألمانيا, فكانت نهاية حقبة الازدهار التي انتشرت خلال عشرينيات القرن العشرين كاملاً, وكذلك فقد رفض النظام مبدأ الفن من أجل روح الفن فقد كان يرى بأن كل مظاهر الجمال الثقافي يجب أن تخدم النظام الجديد, ولم يعد سوق الفن الألماني قادراً على ممارسة نشاطه بحرية لأن الأيديولوجيا النازية اتّهمت هذا النوع من الفنانين بالماركسية مما اضطرهم للهجرة خارجاً, حتى في موضوع الموسيقى التي تعتبر أقل الفنون علاقة بالسياسة فقد أصبح هدف ألمانيا واضحاً في مجلس موسيقى الرايخ, وهو رفض أي موسيقى غير موسيقى الآريين[٢].

وفيما يخص التربية والتعليم فقد أصبحت مهمة الحزب والحكومة تعليم أبناء الشعب بأن الحرب شيء طبيعي لتدعيم ولائهم للوطن, وجرى تحويل المدارس العلمانية جميعها من الصفوف الابتدائية الأولى حتى الصفوف النهائية في الجامعات وفقاً للفكر النازي, وأضحى كتاب هتلر تحت عنوان "كفاحي" اللسان الناطق في الهيئات التدريسية والمرشد لهم في حقل التربية, كما تمَّ تلقينهم مبادئ النازية وتعاليمها القائمة على إفناء الفرد في الدولة والتضحية من أجل الزعيم, وأُلزم المدرسون ترديد تحيّة النصر للزعيم هتلر وإنشاد النشيد الوطني القومي (ألمانيا فوق الجميع) في صباح كل يوم دراسي, إضافة لتبادل تحية النصر بين المعلم والطلاب داخل المدرسة وخارجها وعند بداية كل درس وعند نهايته. وفي سن الرابعة عشرة كانوا يُدرَّسون علم الوراثة حيث يظهر

---

١ - نيرمين سعد الدين إبراهيم, **"صعود النازية"** , دمشق, دار صفحات للدراسات والنشر, ٢٠٠٨, ص١٢٧-١٢٨.

٢ - حبيب قهوجي, "**الصهيونية والعنصرية في الفكر والممارسة**", دمشق, منشورات مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية, ط١, ١٩٨٠, ص٤٩.

أساس علم الأعراق البشرية (الأنثروبولوجيا).لقد خطط هتلر ليكون التعليم غير مقصور على الدروس الجامدة بل يتعداها إلى التدريب العسكري والسياسي في منظمات الشباب, وتحولت الرياضة البدنية إلى تدريبات عسكرية من ملاكمة وتمارين الميدان وقذف القنابل اليدوية, وكان الشبّان والفتيات بين السادسة والثامنة عشرة سنة من عمرهم ينتظمون في مختلف درجات الشبيبة الهتلرية ويخصص لكل منهم دفتر درجات يدوّن فيه سير تقدمه ونموه العقائدي. وبعد أن يتم الثامنة عشرة ينتقل إلى الخدمة العسكرية, وكانت جميع الدروس بخصوص تمجيد الحرب وإحياء روح المغامرة, وكثيراً ما كانت الفتيات تتدربن على الأعمال العسكرية[١].

وفي مرحلة التعليم العالي صُبغ التعليم بالصبغة النازية وحرّف التاريخ في الكتب المقررة, وفي محاضرات الأساتذة كان تعليم العلوم العنصرية يقوم على أساس أن الألمان يؤلفون العنصر السيد. وقد تم طرد أكثر من ١٤% من أساتذة الهيئة التدريسية عدا من غادرها طوعاً, وهذا إما لأنهم غير آريين أو غير مرغوب بهم سياسياً أو أنهم تداولوا أفكاراً شيوعية[٢] .

لقد تبنى النازيون الرؤية العلمية المجردة تماماً من القيم والغايات الإنسانية, ومن أهم تجليات هذا الانحياز العلمي لديهم هو مفهوم (الصحة العرقية) الَّذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوية وعلى نقائه عن طريق التخلص من العناصر الضارة التي تعد تعبيراً عن انهيار العرق وانحطاطه. ومن أهم المفاهيم المرتبطة بـ (الصحة العرقية) هذه مفهوم القتل الرحيم الموضوعي, أي التخلص من المصابين بأمراض مزمنة أو المعوقين وأصحاب التشوهات الخلقية, إضافة للتجارب العلمية التي كانوا يجرونها على البشر بكل سهولة وبساطة فالبشر بنظرهم تحوّلوا إلى مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب ومنها أن يقوموا بعمليات استئصال من دون تخدير لدراسة أثرها, أو إطلاق الرصاص على نزلاء معسكرات الاعتقال لاختبار فاعليته في الحرب, وعُرّض آخرون لغازات سامة, ووضع بعضهم في غرف مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع خلالها الإنسان أن يظلّ حيّاً وهو على ارتفاعات عالية, وهناك تجارب عرّض فيها سجناء للبرد الشديد حتى الموت لمعرفة مدة بقائهم أحياء لإطالة حياة الطيارين الَّذين يسقطون في مياه متجمدة, إضافة لتجارب الحقن بالسم أو البكتريا وتجارب زرع الغرغرينا في الجروح والتعقيم وترقق العظام والتجارب على التوائم وغيرها....[٣]

---

١ – نيرمين سعد الدين إبراهيم, "**صعود النازية**",مرجع سابق, ص١٤٤–١٤٥.

٢ – حبيب قهوجي, "**الصهيونية والعنصرية في الفكر والممارسة**", دمشق, منشورات مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية, ط١, ١٩٨٠, ص٤٩.

٣ – المرجع السابق , ص١٥٣.

وهكذا فإن النازية الألمانية, والفاشية الإيطالية ما هما إلا وجهان لعملة واحدة, في نفس الحقبة خلال الربع الأول من القرن العشرين, وتطوّرتا معاً محاطتين بنفس الظروف تقريباً, فتشابهتا في كثير مـن المبـادئ العنصـرية وأكثر ما ميزهما عن باقي أشكال العنصرية هو التّوجه بعنصريتهما ضد كل من ليس ألمانياً أو إيطالياً في العالم كله وليس ضد جهة محددة, فكانت النتيجة أنْ وقفتا جنباً إلى جنب في تأدية رسالتهما الإنسانية العظيمـة, وبنـاء صروح الحضارة حسب ادعائهما, وذلك بهلاك أكثر من خمسين مليون نفس بشرية في الحرب العالميـة الثانيـة التي تعد أكثر الحروب دماراً وسفكاً للدماء في تاريخ البشرية, وقد أحـال المعتـدون النـازيون مئـات المـدن السوفييتية وأكثر من سبعين ألف قرية هناك, عدا عن مدن وقرى في بلدان متنوعة إلى خـراب تـام, وشـرّدوا عشرات الملايين دون مأوى, ودمّروا عشرات الآلاف من المنشآت الصناعية إضافة للكوارث والمآسي البشـرية والحضارية والاقتصادية التي جرّتها ألمانيا النازية بقيادة هتلر على الكثير من بلدان آسيا وأفريقيا وأوربا, فعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية كان أكثر من ٦٦% من إجمالي مساحة الكـرة الأرضـية مـن نصـيب الـدول المستعمِرة.

الفصل الثاني:مراحل تطور العنصرية الغربية تجاه الشرق:

- المبحث الأول: الاستشراق.
- المبحث الثاني: العنصرية الصهيونية.
- المبحث الثالث: العنصرية الغربية في الفكر السياسي المعاصر.
  - المطلب الأول: قراءة في مفهوم صدام الحضارات.
  - المطلب الثاني: العنصرية الغربية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ في أمريكا.

الفصل الثاني: مراحل تطور العنصرية الغربية تجاه الشرق.

المبحث الأول: الاستشراق .

لقد ظل الشرق يجرَّب, ويُعايَن من خلال مادة الأدب التي شملت الحكايا الخرافية حول الشرق , والتي استفادت من رحلات الجغرافيين إلى الشرق واستقت من التاريخ موضوعاً لها صاغته كما أرادت له أن يتضح , وذلك ضمن نموذج منمّط .

لقد جعل المستشرقون من الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشيطانية, وذلك منذ تنامي سيطرة المجتمع الإسلامي عسكرياً بعد وفاة الرسول محمدﷺ عام ٦٣٢ م , ثمَّ تنامي السيطرة الثقافية والدينية تنامياً هائلاً .

أمّا وقد دخل القرن الخامس عشر منتصفه فقد رأى المفكرون الغربيون الجادون أنَّ عليهم أن يفعلوا شيئاً ما حول الإسلام بعد وصوله عسكرياً إلى أوربا الشرقية , وكانت الفكرة فكرة المستشرق جون أوف سغوفيا الَّذي حاول مع أمثاله من ثلاثة مستشرقين , أن يعالجوا الإسلام من خلال المسيحية بالجملة, يوضحون من خلاله أنَّ الإسلام لم يكن أكثر من صورة ضالة للمسيحية, وفي ضوء ذلك يقول المستشرق سذرن:" لقد كُدِّست فوق محمد في العصور الوسطى حزمة من الخصائص التي تطابقت مع شخصية أنبياء الروح الحرة – في القرن الثاني عشر – الَّذين ظهروا في أوربا, وادعوا أنهم صادقون, وجمعوا وراءهم أتباعاً". وحين ولجت أوربا القرن السابع عشر فقد أصبح بمقدورهم كما قال أحد جغرافيي ذلك القرن وهو رافائيل ودمان أن يدركوا أنَّ الشرق قد تمَّ تجاوزه وإحالته إلى عالم عتيق مع تطور العلوم الغربية, إلاَّ أنَّ أوربا اكتشفت قدرتها على احتواء الشرق, مع جهود المستشرق " دير بيلو" الذي كان يوثِّق للشرق ويؤكده في أعين قرائه .هذا الأسلوب الَّذي أخذ يتطور بمرور الزمن, وبفصاحة ووضوح وعناية مفرطة وجودة في الجغرافيا التخيلية الغربية , كما في جحيم دانتي, الَّذي قال عنه, إدوارد سعيد: "إنه جمع بسلاسة بين التصوير الواقعي العادي, وبين نظام من القيم المسيحية كونيٍّ وسرمدي"[(١)].

وعندما أحكمت الدول الأوربية قبضتها على دول الشرق منذ مطلع القرن العشرين أخذ الاستشراق يؤكد على أنَّ الشخصية العربية هي المسؤولة عن عدم القدرة بشكل مطلق على التحديث رغم جهود الغرب المتواصلة للمساعدة, فالعرب غير قادرين على التغيير لعدم استعداد كامن فيهم , فالعربي ينتج نفسه إلى مالا نهاية جنسياً ولاشيء آخر, والعرب سُذَّج, غافلون, كسالى, وبالتالي فإنَّ علاجهم الوحيد هو تلقّي الاستشارة من الغرب المتطور[(٢)] .

١– إدوارد سعيد, "**الاستشراق**", ترجمة كمال أبو ديب, بيروت, مؤسسة الأبحاث العربية,ط٢, ١٩٨٤, ص٨٨-٩٦.

١– أديب خضور , " **صورة العرب في الإعلام الغربي** ", دمشق ,خضور , ٢٠٠٢ , ص٢٣

لقد طرح وزير الخارجية البريطاني الأسبق آرثر جيمس بلفور سؤالاً ليجيب عليه بالطريقة التي تناسبه , أما السؤال فهو التالي: "أي حق لديك لتستشعر هذا الحس بالفوقية إزاء شعوب تختار أن تسميها شرقية ؟", فيكون جوابه: "قبل كل شيء انظر إلى حقائق القضية, أنَّ الأمم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تُظهر تباشير القدرة على حكم الذات ...... لأنها تمتلك مزايا خاصَّة بها . ويمكننا أن ننظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله فيما يسمى بشكل عام المشرق دون أن نجد أثراً لحكم الذات على الإطلاق, كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقي, ولقد كانت عظيمة جداً, انقضت في ظل الطغيان, ظل الحكم المطلق, وكل إسهاماتهم العظيمة في الحضارة الإنسانية, ولقد كانت عظيمة, أُنجزت في ظل هذا النمط من الحكم, فقد خلف فاتحٌ فاتحاً, وتلت سيطرةٌ سيطرةً, غير أنك في دورات القدر والمصير كلها لا ترى أمة واحدة من هذه الأمم تؤسس بدافع من حركتها الذاتية ما نسميه نحن, من وجهة نظر غربية, حكم الذات.... هذه هي الحقيقة, وليست القضية قضية فوقية أو دونية...... أهو خير لهذه الأمم العظيمة – وأنا أعترف بعظمتها – أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق ؟ في ظني هذا خير وإننا موجودون في مصر لسنا من أجل المصريين وحسب , مع أننا فيها من أجلهم نحن أيضاً من أجل أوربا بأكملها"[١].

وهكذا فإن المستشرق يقوم بعملية استقطاب التمييز وتعميقه بين الشرقي والغربي عن طريق عملية مسح العالم الَّذي عليه أن يتعامل معه, وعملية المسح تعني المعرفة الكاملة لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها ثم انحطاطها, وهناك مثال ليس بالبعيد زمنياً, فقد كان وزير الخارجية الأمريكية الأسبق "هنري كيسنجر" يفعل ذلك صراحةً عبر طريقة الثنائيات الضدية, أي أنه يُظهر أنّ هناك أسلوبين في السياسة الخارجية (النبوئي, والسياسي) ونمطين من التقنية, ومرحلتين زمنيتين ..... وهكذا, وأخيراً يقسم العالم إلى نصفين, هما البلدان المتطورة والبلدان النامية ولكن كيف قام باستقطاب التمييز بين هذين النصفين من العالم..؟ فعل ذلك حين أكد أن النصف الأول "الغرب" ملتزم التزاماً عميقاً بمفهوم كون العالم الحقيقي عالماً خارجياً بالنسبة للمراقب, وكون المعرفة تتألف من تسجيل المعلومات وتصنيفها... ولقد برهن على ذلك من خلال الثورة (النيوتونية) التي لم تحدث بعد في العالم النامي, والَّذي بقي نتيجة لذلك محتفظاً بنظرة قبل (نيوتونية) أي أن العالم الحقيقي هو داخلي بالنسبة للمراقب, ويريد بالتالي أن يبيّن " نحن– الأوربيين– لنا ثورتنا النيوتونية, أما هم – الشرقيين – فلم يكن

---

١ – إدوارد سعيد , " **الاستشراق** ",مرجع سابق, ص٦٣.

لهم ذلك, وبالتالي نحن أوفر غنى منهم", كل هذه الادعاءات تصوِّر الغربيين عقلانيين محبين للسلام متحـــررين منطقيين قادرين على التمسك بقيم حقيقية, وبالمقابل فإن الشرقيين لا يملكون أياً من هذه الصفات [١].

يصل إدوارد سعيد إلى سياسيين معاصرين, مثل كيسنجر ليصور مدى التشابه في وصف الشـــرق بـــين هـــؤلاء المعاصرين من جهة, وبين من سبقوهم مثل بلفور, وما كان ليتوقف لو كتب كتابه بعد أحداث الحادي عشر مـــن أيلول, ليصور مدى التطابق في اختلاق الذرائع التي دفعت بـــجورج بوش الابن لأن يقسم العالم إلى محـــورين (محور الشر, ومحور الخير) ـــ (ضدنا, ومعنا) وتكون أولى مخططاته هي أفغانستان, وينتقل بعدها إلى العراق مستخدماً ذريعة وجود أسلحة الدمار الشامل فيه, وبالتالي ضرورة الحرب الوقائية.

وهكذا فقد استمر الاستشراق كأداة خطيرة, استخدمها الغرب في عدائه للشرق منذ أوائل القرن السابع عشر, مـــع التطور العلمي والصناعي والتفوق الاقتصادي والعسكري لدول أوربا. وتابع الاستشـــراق دوره كـــأداة بيـــد الغرب ضد الشرق ككل حتى فترة قريبة من الآن.

أما بعد انتهاء الحرب الباردة, وصعود نظرية صدام الحضارات, فقد توجه الفكر العنصري في الغرب إلى وضع الإسلام تحديداً في خانة العدو الأساسي, وغضّ النظر بشكل كبير عن بقية أجزاء الشرق, وهـــذا مـــا ســـيعالجه الباحث ويبين أسبابه في آخر هذا الفصل.

---

١ - إدوارد سعيد , " **الاستشراق** ",مرجع سابق, ص٧٦ -٧٧.

المبحث الثاني: العنصرية الصهيونية.

الصهيونية: حركة سياسية عنصرية استعمارية استيطانية عدوانية, وتوسعية مرتبطة بالاستعمار, تسخّر الدين اليهودي لتحقيق أهدافها في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين والأراضي المجاورة لها.

وهي في جوهرها عقيدة دينية متطرفة, فقد بدأت من تطلع ديني يعود إلى ثلاثة آلاف سنة, واستمدت أصولها من الديانة اليهودية التي تنص أن إله اليهود (يهوه) قد وعد شعبه الخاص بأرض فلسطين ملكاً أبدياً وخصّهم بها ميراثاً أزلياً فهو يقول في سفر الخروج٦ "أتخذكم لي شعباً, وأكون لكم إلهاً, وأدخلكم إلى أرض فلسطين مقسماً أن أعطيكم إياها ميراثاً", وفي سفر التثنية يخاطبهم "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم...."[١].

إن هذه العلاقة بين يهوه وبين شعبه ظلّت نفعية بمفهوم مادي بحت, وسياسية عنصرية, فهو ينصرهم على أعدائه ويمكنهم من الاستيلاء على أراضي الشعوب, وهم يعبدونه ويقدّمون له القرابين وهكذا أخضعوا إلههم لإشباع رغباتهم وتحقيق نزواتهم مما أدى إلى إنكار آلهة الأمم الأخرى فاعتبروا الأمم وإلهها رجساً ونجاسة, وانغلقوا على نفسهم وعلى آلهتهم, فنشأ في نفوسهم من جراء ذلك اعتقاد بأنهم شعب الله المختار.

وقد خلع اليهود على إلههم أخلاقهم ونزعاتهم العنصرية فتكيفت طبيعته مع طبيعتهم الشرسة المولعة بالحرب وسفك الدماء فإذا به إله قاسٍ, مرعب, حقود, منتقم, غاضب, متعطش للضحايا كما ورد في سفر يشوع٦, وقد أمرهم في سفر صموئيل الأول١٥ بأنْ: "اقتل رجلاً وامرأة, طفلاً ورضيعاً, بقراً وغنماً, جملاً وحماراً....."[٢].

وجاء الأب الأول (نوح) الناطق باسم يهوه يوزع البركات واللعنات بين أبنائه يكلل واحداً بالسيادة وهو أبو اليهود ويصم آخر بالعبودية وهو أبو الكنعانيين, فكانت هذه اللعنة باعثاً للعداء والحقد العنصري[٣].

لا بل ذهبت العنصرية أبعد من ذلك وبلغت درجة التعصب الأعمى حين نهت اليهودي عن قتل أخيه أو الغدر به أو الحقد عليه وأمرت بقتل بقية الشعوب والانتقام منها ففي سفر التثنية٢٣ ورد: "لا تقرض أخاك بربا, للأجنبي اقرض بربا....".ويقول سفر اللاويين٢٥: "....وأما عبيدك الّذين يكونون لك فمن الشعوب حولكم, منهم تقتنون عبيداً وإماء..... وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر, وأما أخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف".أما الأب عزرا فقد كان شديد التعصب, وأفكاره عنصرية متطرفة وقد انتهز فرصة تجميع أسفار التوراة لتطوير العقيدة الدينية بما يتفق وفلسفة العنصرية المتطرفة, حتى أنه اعتُبر كاتب الشريعة اليهودية جاعلاً من مبدأ العنصرية عقيدة دينية مقدسة, وظلت تعاليمه السُّنَّة المتَّبعة في المجتمع اليهودي

١- جورجي كنعان," **العنصرية اليهودية**" ,مرجع سابق, ص٢٦.

٢ - المرجع السابق, ص٦٠.

٣- منظمة أونسكو," **العرقية إزاء العلم**", مرجع سابق, ص١٢.

طوال عصور التاريخ اليهودي حتى قيل لو أن الوصايا العشر لم تنزل على موسى لنزلت على عزرا وهو القائل في سفره التاسع والعاشر مخاطباً اليهود: "انفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبات"[١].

لقد مُلئت تعاليم اليهودية الأولى بالكثير من هذه المبادئ التي تصب بنفس المعنى والتي لا مجال هنا لتعداد المزيد من نصوصها الدينية, فهي واحدة في جوهرها البغيض متعددة بأساليبها البشعة, وقد تم ذكر جزء من جذورها كي يتم الانتقال إلى مراحل حديثة, وكذلك من أجل الربط بين هذه المراحل جميعها, والتي أنتجت الكيان الصهيوني, فبعد ثلاثة آلاف عام تستمد الصهيونية أصولها من الديانة اليهودية, فلما كان لليهود دين خاص بهم, وكان هذا الدين بحد ذاته قابلاً للتلاؤم مع الرغبة الصهيونية, فإن التوفيق بينهما كان أمراً ممكناً.

لقد كتب الكاتب اليهودي(موسى هس) قبل ظهور الصهيونية بسنوات قائلاً: "إن وجود ديانتهم المتميزة بهم أثبتت أن اليهود كانوا شعباً وأنه يحق لهم التمتع باستقلالهم الوطني..... إلى أن يقول واليهود في الحقيقة أول شعب أصيل"[٢].

وهذا الكاتب الصهيوني هيرمان ووك يصرّح: "إن دولة إسرائيل هي أحدث تحقيق لأقدم حلم ديني في الأرض..." وفي المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين أعلن الزعيم الصهيوني مناحيم بيغن أنه "لا يمكن الفصل بين القومية وبين الدين في اليهودية".أما بن غوريون فقد قال: "إن العقيدة اليهودية تلازمها دوافع قومية وإقليمية, هي التي أدت إلى ارتباط اليهود ارتباطاً روحياً عميقاً بأرضهم القديمة". وهذا ما ذهب إليه جورجي كنعان في كتابه (العنصرية اليهودية) حين قال: "إن الصهيونية هي الوجه القومي في اليهودية, كما أن اليهودية هي الوجه الديني في الصهيونية, وإسرائيل تحقيق سياسي للاثنين معاً".أما الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل فيقسم العالم إلى يهود وأغيار مطلقاً أوصافاً وعبارات مثل (ارتقاء العنصر اليهودي), قائلاً: "إن اليهود بقوا شعباً واحداً وجنساً متميزاً..." وهناك المفكر الصهيوني شموئيل اتينغر الَّذي يصف اليهودي بأنه "احتفظ بتفرده التاريخي الثقافي والديني"[٣].

كما أن شعب إسرائيل لا يشبه الشعوب الأخرى... كما يقول الحاخام إسرائيل سادان ولو أنهم نسوا هذا التفرد فإن عيسى وإسماعيل سوف يذكرانهم بهذه الحقيقة بالسياط والعقارب.والصهيونية بذلك ترى في كل الشعوب والمجتمعات والقوميات مجرد كائنات أدنى منها, حتى أنها في جوهرها تقف ضد كل الأديان الأخرى, بل تذهب

١- جورجي كنعان," **العنصرية اليهودية**", مرجع سابق , ص٥٥-٥٦.

٢- أمنون روبين شتاين, "**مراجعة الحلم الصهيوني من هرتزل إلى غوش أمونيم**", ترجمة محمد نجاة العظم, دمشق, مركز الدراسات العسكرية, ١٩٩٢, ص٤١.

٣- جورجي كنعان," **العنصرية اليهودية**", مرجع سابق, ص٢٤- ٢٥.

أيضاً إلى معاداتها فهي تؤكد في التلمود بأن: "الأمم الخارجة عن دين اليهود ليست كلاباً فقط, بل حميراً أيضاً"(١).

ولا عجب في رؤية حتى النصوص اليهودية الأولى, وهي تُعاد على ألسنة زعماء الصهيونية ومفكريها وحاخاماتها بعد آلاف السنين بكل صفاقة ودون أي رادع دولي أو أخلاقي أو حتى فكري فقد أعلن القساوسة العسكريون الربانيون للعامة أنه يمكن قتل المدنيين العرب في هذه الحرب المأمور بها دينياً(٢).

فحروب إسرائيل إذاً هي حروب دينية مأمور بها شرعاً لذلك فإنه ينبغي عدم تطبيق القواعد الإنسانية المألوفة في حروبهم.

وبناءً على ذلك يقول الحاخام مايريهيل: "نحن لم نأت إلى هنا لنتطلع إلى السلام والهدوء, نحن جئنا إلى هنا رغم الصياح والغضب من أجل أن ننجز أمر الرب, وبالتالي فإنه لن تمنعنا أو تعوقنا أية عقبة"(٣).

إنَّ هذه الطبيعة الاستعمارية للصهيونية تنعكس على موقف الكيان من اليهود الشرقيين, ففي الحقيقة ثمة تناقض صارخ في موقف الصهيونية بخصوص من هو عدوها, فتارةً يكون العدو كما حددته نصوصهم المختلفة هو كل من يدين بغير اليهودية, وأخرى يُلاحظ أن نفس الروح العنصرية تسيطر على السياسة الداخلية لدولة إسرائيل, فالتمييز حاصلٌ حتى بين اليهود أنفسهم, أي بين أولئك القادمين من أوربا وأمريكا والمدعوين بالأشكنازيم, وأولئك القادمين من بلاد غير غربية والَّذي يطلق عليهم اسم السفارديم, فرغم أن أولئك السفارديم يشكلون خمسين بالمئة من السكان, فلم يكن لهم بدايةً سوى عشرين نائباً من أصل مئة وعشرين في الكنيست(٤), وهذا ما استمر طيلة سنوات عديدة إلاّ أن قلق زعماء البرجوازية (القومية) اليهودية يزداد في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب التطورات الديموغرافية لصالح اليهود الشرقيين, وبذلك يمكن أن يتحول الكيان الصهيوني إلى دولة شرقية

١- مروان مشاكل, "**خرافة الصهيونية ومواقفها المتردية**", دمشق, مطابع الإدارة السياسية, دون ذكر عام نشر, ص٤٣.

٢- أمنون روبين شتاين, "**مراجعة الحلم الصهيوني من هرتزل إلى غوش أمونيم**",مرجع سابق, ص١٦٤- ١٦٥.

٣- المرجع السابق, ص١٥٢.

4- Rogeh Garoudy, "**Relijious and historical pretexts of Zionism**", journal of palestiine studies, /VI/2 (winter 1977), P46.

على حد تعبيرهم[١]. واليهود الشرقيون كانوا يشعرون بالتمييز ضدهم بصورة خاصَّة حين يشاهدون الامتيــازات التي تمنح لليهود الغربيين[٢].

فالدولة اليهودية في فلسطين بهذا المعنى يجب أن تكون جزءاً من متراس أوربا ضد آسيا, فالشــعوب الآســيوية والأفريقية خاملة مقابل يهود أوربا الَّذين وصفهم هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني قائلاً: "ربمــا أن مهــارة الشعوب الجرمانية ومرونة الشعوب الرومانية والصبر الكبير الَّذي يتحلى به السلافيون قد تركت أثرها علينا"[٣]. وهكذا يتضح أن الحركة الصهيونية منذ بداياتها كانت تعتمد على يهود أوربا. أما اليهود الشــرقيون فقــد كــانوا غرباء عنها وكانت غريبة عليهم, وليس من حاجة هنا إلى استعراض تاريخ الكيان الصهيوني للبرهنة على مدى ارتباطه بالاستعمار الغربي.

إن من ينظر لإسرائيل قد يفهم وجود تمييز عنصري ضد العرب, ولكن التمييز العنصري ضد اليهود الشــرقيين حاصل وسيبقى دائماً, ولا يمكن فهم هذه الظاهرة إلا إذا نُظِر إلى الصهيونية على حقيقتها, وهــي أنهــا حركــة استعمارية استيطانية تحمل مخلفات عقلية الرجل الأبيض.

حتى أن هذه النزعة العنصرية الاستعمارية لم تعد من الأمور التي يتمُّ التكتُّم عليها اســتحياءً أو التلطُّــف فــي الإلماح إليها رمزاً وتضميناً, بل أصبحت من صميم الممارسات والتصريحات التي ينادي بها علناً كــل مســؤول وزعيم ومفكر صهيوني فها هي غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل السابقة تقول صراحة: "أنا أقتل فأنا موجود", وكان هرتزل قد قال: "القوَّة تأتي قبل الحق", أما بيغن الَّذي أوضح بكل يسر وبساطة أن: "إسرائيل قد قامت بالدم والنار والإكراه"[٤].

وما مبادئ البروتوكولات التي وضعت عام ١٩٠١م في مدينة سيرجيف الروسية إلا تأكيد سافر على ذلــك.ففي البروتوكول الأول أكدوا على أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق بشيء. وقالوا في البروتوكــول الثالــث: "نظهــر وكأننا محررون للعمال.... وقوتنا في أن يبقى العامل في فقر", مصرحين في برتوكولهم الخامس: "لقــد بــذرنا

---

١ – محمد حبيب صالح, "**الصهيونية الأمريكية وأزمة نظرية (دولة يهود العالم)**", جامعة دمشق, دراسات إستراتيجية, مركز الدراسات والبحوث الإستراتيجية, , السنة الثالثة, العدد الثامن, ٢٧ ربيع ٢٠٠٣, ص٢٢٠.

2- - Chrales Glass, "**jeus against Zion: Israeli jewish Anti – Zionism**", journal of Palestine studies, V, I and 2, (Autumn 1975/ winter 1976), P:69.

3- Theador Herzl, "**opening address at the second Zionist congress**", Zionist wirtings, essays, and addresses, Vol, II, translated for German by Harry Zohn (new york: Herzl press, 1975), P:23.

٤ – سعد الله بركات, "**القدس والإرهاب الصهيوني**", دمشق, مطبعة اليازجي, ط١, ٢٠٠٠, ص١٩.

الخلاف بين الأمم ونشرنا العصبيات القبلية والدينية على مدى عشرين قرناً". بينما في البروتوكول التاسع فقد كتبوا: "إننا مصدر إرهاب بعيد المدى, وتسخير أناس من جميع المذاهب". دون أن ينسوا أنَّ عليهم أن يحطموا كل عقائد الإيمان كما جاء في بروتوكولهم الرابع عشر.وعليهم أن يبدؤوا باحتكارات عظيمة وقد أنجزوا الأزمات الاقتصادية في العالم كما ورد في البروتوكول السادس والثامن والتاسع عشر(١).

هذه بعض من مبادئ اليهود التي كرروها في محافلهم وتوصياتهم وآراء مفكريهم, والتي لا تقتصر فقط على معاملتهم لشعب فلسطين, فهم حتى ضمن أوربا الشرقية كانوا يقاومون كل اندماج ويسعون إلى بعث النزعات العنصرية والانعزالية في الديانة اليهودية ويحاولون إحياء ما دعوه (بالأمة اليهودية) متفقين على مفهوم عام واحد هو أنهم شعب غريب عن غيره من الشعوب.... ومقدس في طبيعته, فعاشوا في عزلة تامة عن البيئة التي تحيط بهم, لدرجة أنَّ "رؤية حرف واحد من حروف اللغة الروسية كان كافياً ليدنس العين"(٢).

وقد عبر عن هذه المعتقدات العنصرية في أرض فلسطين أحد المهاجرين الأوائل (موشيه منوحن) بقوله: "لا تعاملوا طبيب أسنان عربياً", "لا تشتروا من تاجر عربي", وقد ضمنت المعتقدات الأساسية للاستعمار الصهيوني أن يبقى الفلسطيني غائباً عن أنظار المجتمع الاستيطاني.فبالنسبة لاحتلال الأرض قالوا: "اليهود يجب أن يملكوا الأرض, وأن يعملوا فيها, واليهود وحدهم هم الَّذين يحق لهم ذلك". ويعترف موشيه دايان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق قائلاً: "ليست هناك قرية يهودية في البلاد لم تقم مكان قرية عربية" (٣).أما بالنسبة لاستخدام العمَّال في مشاريعهم فقالوا: "المشاريع اليهودية يجب أن تستخدم العمال اليهود فقط".و فيما يتعلق بإنتاج الأرض فقد قرروا "المقاطعة الصارمة للبضائع العربية" (٤).

وقد أدى تطبيق هذه السياسة العنصرية المرتكزة على مبادئ اليد العاملة اليهودية, والمحاصيل اليهودية – كما يقول موشيه منوحن – إلى نشوء اقتصاد يهودي شبيه بالحكم المطلق يرتكز على أسس قومية فاشية (نقابات قومية متطرفة, ميليشيا, مدارس, مؤسسات سياسية) تضمنت بذور الدولة اليهودية في المستقبل(٥).

---

١ – سعد الله بركات, "**القدس والإرهاب الصهيوني**",ص٧٥.

٢ – جورجي كنعان," **العنصرية اليهودية**", مرجع سابق, ص٩٢.

٣ – سلسلة محاضرات الإعداد السياسي للضباط," **الإرهاب الصهيوني فكرة وممارسة**", دمشق, القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة, الإدارة السياسية, دون ذكر عام النشر, ص١٨.

٤– جورجي كنعان, " **العنصرية اليهودية**",مرجع سابق, ص١٠٦.

٥– المرجع السابق, ص١١٤.

لقد اتخذ التمييز العنصري صوراً متعددة, وهناك سيل من الوثائق التي تفضح هذه الصور, فكل إنسان فلسطيني يمكن أن يتعرض للاعتقال في أي وقت, ويمكن طرده من البلاد ومصادرة ممتلكاته ونسف بيته وتحديد إقامته, فهو مرتبط بالحكم العسكري في كل صغيرة وكبيرة.

وتطبيقاً لهذه الأفكار العنصرية قامت إسرائيل بتدبير مذبحة دير ياسين ١٩٤٨/٤/٩ كإحدى الأساليب التي حاولت من خلالها التأثير على السكان العرب ودفعهم إلى الهجرة خارج فلسطين, إضافة لما حدث في القدس وحيفا واللد والرملة وغيرها, وقد تكررت المأساة في كفر قاسم ١٩ تشرين الأول ١٩٥٦ م عشية العدوان الثلاثي على مصر للضغط على عرب الأرض المحتلة وإرهابهم, إضافة لفظائع التعذيب التي تقوم بها. فهناك حوالي مئة وخمسين ألف ضحية على الأقل ومازال الآلاف غيرهم رهن الاعتقال والتعذيب وقد تم اقتياد بعضهم إلى مركز أبحاث (إيه. بي. سي) كي يُستخدموا كفئران معامل حيث تتم تجربة كافة أنواع الأسلحة الكيميائية والذرية والبيولوجية عليهم[١].

وما قول مناحيم بيغن عام ١٩٥٨ وهو يخاطب الجيش الإسرائيلي إلاَّ دليل على ذلك "أنتم –الإسرائيليين– لا ينبغي أن تكونوا رؤوفين حين تقتلون عدوكم, ينبغي عليكم أن لا تعطفوا عليه طالما لم نقضِ على ما يسمى بالثقافة العربية ولم نبنِ على أنقاضها حضارتنا نحن" [٢].

إن ثمة تشابهاً بنيوياً وفلسفياً بين الصهيونية والنازية, فالصهيونية مبنية على تصورات أسطورية مثلها مثل النازية, فالنازية تقوم على تفويق العنصر الآري, وبالمقابل فإن الصهيونية ترى في اليهود وحدهم (شعب الله المختار) وتحتقر الأغيار وكل مَن ليس مِن الجنس الآري بالنسبة للنازية, أو من الدين اليهودي بالنسبة للصهيونية فهو منحط.

لقد مارست الصهيونية الإرهاب, كما قامت وتقوم بشكلٍ دائم بحملات إبادة للشعب الفلسطيني تماماً كما اتَّهم اليهود النازية في حملات الإبادة ضدَّهم, فكان الأسلوب المُتَّبع في مذبحة دير ياسين هو نفس الأسلوب المتَّبع في مذبحة (أورادور) التي قام بها النازيون.

أما النقطة الثانية التي تلتقي عندها فلسفة الصهيونية والنازية فهي التوسعية الصهيونية والمجال الحيوي عند ألمانيا النازية, فحدود الكيان الصهيوني وأمنه هما جيشه, كما كان جيش النازية من قبل, وبالتالي قام الكيان الصهيوني بعسكرة شعبه مثلما فعلت النازية, ليتحول الشعب كله تقريباً إلى جيشٍ في كليهما.

١- أحمد فؤاد أنور," **تاريخ اليهود**", القاهرة, مركز الراية للنشر والإعلام, ط١, ١٩٩٣ , ص١٧٦-١٧٧.

٢- حبيب قهوجي, "**الصهيونية والعنصرية بين الفكر والممارسة**", دمشق, منشورات مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية, ط١, ١٩٨٠, ص٦٥.

كذلك التقت النازية والصهيونية في مجال الممارسة العملية على أساس ضرورة التخلص من الفئات غير الآرية في ألمانيا, والفئات غير اليهودية في فلسطين من أجل استعمار فلسطين وسوق أكبر عدد ممكن من اليهود إليها, فقام الكيان الصهيوني بحثٍّ اليهود من دول العالم على الهجرة إليه من أجل ملء مجاله الحيوي, وكذلك كانت النازية حين حثَّت على تكاثر النسل ونقائه الجرماني لملء مجالها الحيوي(١).

هذه هي النظرية العنصرية الصهيونية التي تتسم بالغيبية والرجعية وتقوم على ادعاءات وهمية خرافية تجاوزت حتى الأساطير.

فاليهود يدعون بأنهم شعب واحد, وأنَّ دينهم يختلف عن سائر الأديان لأنه دين الشعب اليهودي فقط, وليس موجهاً للإنسانية جمعاء, وهنا يحضر ردّ مفكر الاجتماع الفرنسي جان جاك روسو على هذا الادعاء بقوله: "إن ربكم ليس ربنا لأن الرب الَّذي يختار لنفسه شعباً واحداً ويبعد عنه سائر أبناء الجنس البشري لا يمكن أن يكون الرب المشترك لجميع الناس".كما أنهم في حقيقة الأمر لا يؤلفون شعباً واحداً, وإنما هم أتباع ديانة واحدة ينتمون إلى شعوب عديدة وتجمعهم الاستيطاني في فلسطين يضم أكثر من سبعين مجموعة عرقية متمايزة في العادات والتقاليد واللغة..., وهذا ما بينه (سابيرو) رئيس المتحف الأمريكي لعلم السلالات البشرية مصرحاً: "اليهود ليسوا عشيرة أو قبيلة ولا يعتبرون أمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة". وحيث يدّعون بأن الله قد وعدهم بوطن أصلي منذ أيام العبرانيين القدماء, وهذا الوطن هو فلسطين (أرض الميعاد), فإنهم يتجاهلون أن اليهود الحاليين هم غير العبرانيين القدماء وهم حالياً ينتسبون من حيث أصولهم إلى قسمين, هما الاشكنازيم والسفارديم, فالاشكنازيم: هم شعوب مملكة الخزر القديمة التي كانت على شواطئ بحر قزوين وهؤلاء من الشعوب (الهندو-أوربية) , أما السفارديم: فهم الشرقيون الَّذين عاشوا في الأندلس تحت ظل الحكم العربي(٢).

وفي ادعاء كاذب آخر وتزييف للواقع يرفع هرتزل شعاره بأن: "فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض هو الشعب اليهودي", وما هذا الشعار إلا ادعاء باطل تماماً حتى أنه مناقض لما قاله هرتزل: "نبني من أجل أوربا مخفراً أمامياً في فلسطين للوقوف ضد آسيا, وسيكون هذا المخفر طليعة العالم ضد البربرية"(٣).

وهو الَّذي طرح للمرة الأولى في كتابه "الدولة اليهودية" فكرة إيجاد وطن قومي يهودي في أوغندا, وكاد هذا المشروع أن ينجح لولا طرح خيارين آخرين في فلسطين والأرجنتين(٤).

١- حسن أبو حمود, " **علم الاجتماع السياسي**" , مرجع سابق, ص٢٢٣-٢٢٤ .

٢- المرجع السابق, ص٢١١.

٣- المرجع السابق, ص٢١٤.

٤- إيمانويل راتييه, **"خفايا وأسرار منظمة بناي بريت"**, ترجمة إحسان هندي, بيروت, الذاكرة للنشر والطباعة والتوزيع, ط١, ١٩٩٧.

ويؤكد على ذلك الكاتب الصهيوني (ناحوم غولدمان) عندما قال: " كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا أو مدغشقر أو غيرهما, لينشئوا وطناً قومياً لهم, ولكنهم لا يريدون على الإطلاق سوى فلسطين, لا لاعتبارات دينية, ولا لأي شيء آخر بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق في أوربا وآسيا وإفريقيا, ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم...."[١].

وأخيراً وليس آخراً لا بدّ من التنويه إلى أن اليهودية قد أيقنت منذ تأسيسها بأنه لا بد – لتنفيذ الرؤية الصهيونية– من الاعتماد على دولة إمبريالية كبيرة تقوم بتوفير الحماية لخططها فتعاونت مع إنكلترا تعاوناً وثيقاً على أساس تبنّي إنكلترا الهدف الصهيوني, وهذا ما حدث فعلاً إثر وضع فلسطين تحت الاحتلال البريطاني لتسهيل الهجرة وفق اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ومن ثم تصريح وعد بلفورعام ١٩١٧ .

وإثر الحرب العالمية الثانية أدركت الصهيونية الثقل المتزايد للولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد الدولي فنقلت مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن التي طالما وقفت إلى جانب إسرائيل مُدلِلة على عمق المصالح والتوجه معها ضاربة عرض الحائط حتى قرارات هيئة الأمم المتحدة, محولةً الحق باطلاً والباطل حقاً, متحيزةً للصهيونية بشكل مطلق, مثبّتةً كل قرار يخدم إسرائيل حتى ولو كان ابتكاراً محض الخيال, مبرِّئةً إياها من كل جريمة ولو أنها حقيقة واضحة للعيان. وهكذا عندما أدانت الجمعية العامة للأمم المتحدة العلاقة بين النظامين العنصريين في فلسطين وجنوبي إفريقيا, في القرار ذي الرقم /٣١٥١/ كانون الأول ١٩٧٣م الَّذي يشير إلى (التحالف الشرير بين فاشية جنوب إفريقيا وإمبريالية إسرائيل), والقرار ذي الرقم /٣٣٢٤/ في كانون الثاني ١٩٧٤م وفيه أدانت الجمعية العامة (تعزيز الروابط السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها بين إسرائيل وجنوبي أفريقيا)[٢].

وفي١٠/١١/١٩٧٥م أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها ذا الرقم /٣٣٧٩/ القائل: "إن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري", لتعود يوم ١٦/١٢/١٩٩١م وتلغي قرارها ذاك بضغط من الولايات المتحدة متحولةً بذلك من عنصرية إلى مسالمة وديعة[٣].

فأية إيديولوجيا تربوية عنصرية أكثر من ذلك, فالصهيونية ما هي إلاَّ الوجه المعاصر الأكثر عنصرية وعدوانية للاستعمار الغربي, وما هي إلاَّ جزءٌ لا يتجزأ من الإمبريالية العالمية, فلقد وُلِدَت الصهيونية في أوج ازدهار الإمبريالية وسيطرة الاستعمار القديم, فكان من الطبيعي أن تتبنَّى أساليبه باستخدام القوَّة, فكما فعلت

١- حسن أبو حمود," **علم الاجتماع السياسي**" ,مرجع سابق, ص٢١٨.

٢- سلسلة دراسات, "**الصهيونية والعنصرية**", دمشق, مطابع مركز المعلومات القومي, تشرين الثاني, ٢٠٠١, ص١٤.

٣ – المرجع السابق, ص٤٢.

أمريكا تجاه الهنود الحمر بطردهم من موطنهم الأصلي, وإبادتهم, كذلك قامت إسرائيل باقتلاع جـذور الشـعب الفلسطيني, وتهجيره إلى الخارج, وإبادته إبادة جماعية.

مما تقدَّم يلاحظ الباحث أنَّ العنصرية الصهيونية إضافة لكونها عرقية عنصرية فإنها أيضاً أُسـطورية وغيبيـة, وهذا ما جعله يصفها بـ(النازية الجديدة).

إنَّ هذه النظريات العنصرية بمجملها تستند إلى مفهوم خاطئ عن العرق ساعية من خـلال ذلـك إلـى تزويـرٍ مقصود لتبرير نزعتها الاستعمارية كي تأخذ طابع المشروعية في عمليات النهب الإمبريالي.

ولقد استفاضت منظمة اليونسكو بدراساتها في مساهمةٍ منها بتعرية مزاعم الصهيونية وفضحها, حيث أنَّ الأساس الَّذي تعتمده هذه العنصرية ليس إلاَّ تسويغاً بيولوجياً للتمييز العنصري, وبالتالي تبريراً لنهب ثـروات الشـعوب وخيراتها.

المبحث الثالث: العنصرية في الفكر السياسي المعاصر.

المطلب الأول: قراءة في مفهوم صدام الحضارات.

انطلقت فكرة صدام الحضارات مع الكاتب والصحفي (باري بوزان) أستاذ الدراسات الدورية في جامعة (دورويك) البريطانية الَّذي أولى أهمية بالغة لما يسميه بالأمن الاجتماعي في مجال علاقة المركز (الغرب) بالأطراف (بقية العالم) عندما يقول: "الأرجح أن يصبح الأمن الاجتماعي مسألة أكثر أهمية عمّا كان عليه الحال زمن الحرب الباردة, ويتعلق الأمر بالأخطار ونقاط الضعف التي تؤثر في أنماط هوية المجتمعات وثقافاتها". ويعتبر الكاتب الهجرة وما يسميه بالتصادم بين الهويات الحضارية المتنافسة أهم قضيتين في هذا المجال, فالهجرة من الجنوب إلى الشمال تشكل خطراً على أمن دول المركز إذ تهدد هويتها الحضارية, وتخلق طابوراً خامساً داخلها. أما التصادم الحضاري فهو في نظره أوضح ما يكون بين الغرب والإسلام نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الإسلامية, وأيضاً للتنافس التاريخي بين المسيحية والإسلام, إضافة إلى الجوار الجغرافي فيقول: "فإذا اجتمع خطر الهجرة وخطر تصادم الثقافات أصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف على الأقل, ولاسيما بين الغرب والإسلام, ويضيف إلى الإسلام الحضارة الهندية, وهكذا فالحرب الباردة الحضارية المقبلة ستكون بين طرفين هما "الغرب من جهة, والحضارتان الإسلامية والهندية من جهة أخرى"[1].

ويأتي البروفسور (صاموئيل هانتنغتون) الأستاذ في الجامعات الأمريكية الَّذي كرر ما قاله (باري بوزان) مع تعديل واحد هو وضع الحضارة الكونفوشيوسية (الصينية) مكان الحضارة الهندية, والَّذي صنف الدول ليس من خلال شروط أنظمتها السياسية والاقتصادية كما كان سائداً خلال الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي, بل من خلال شروط ثقافتها وحضارتها.

وهكذا فإن مقالته التي كتبها تحت عنوان (صدام الحضارات) في صيف عام ١٩٩٣ تعد بمثابة التأسيس النظري لصراع الحضارات من وجهة نظر غربية.

ولكن ماذا يعني هانتنغتون بـ (الحضارة) في عبارته (صدام الحضارات)؟

يجيب قائلاً: "الحضارة هوية ثقافية" بل هي أعلى تجمع ثقافي, وأن محدداتها هي اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات, والهدف من ذلك هو تصنيف البشرية إلى ثلاث مجموعات تمثل أوسع المجموعات الحضارية,

---

١ – محمد عابد الجابري ,"**قضايا في الفكر المعاصر**", بيروت, مركز دراسات الوحدة العربية, ط١, ١٩٩٧, ص٩٠.

بحيث لا يمكن جمعها في أي كيان حضاري أعلى, وهي الحضارة الغربية, والحضارتان الإسلامية والصينية[١]. ولما كان الغرب متقدماً ومسيطراً, وكان كل من العرب والمسلمين والصينيين يطمحون إلى التقدم والرقي ويطلبون التحديث, وفي الوقت نفسه يرفضون التغريب, فإن الصراع سيكون ثنائي الأطراف بين الحضارة الغربية من جهة, والحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية (الصينية) من جهة أخرى[٢].

ويعتقد هانتنغتون أن الستار الحديدي الَّذي كان يقسم أوربا إلى غربية وشرقية قد حلّ مكانه ستار حضاري مشيَّد من الدين والتاريخ, وهو الصدام بين المسيحية الغربية والإسلام[٣], ويستدرج صاحب مقالة (صدام الحضارات) بالأحداث التاريخية ليدلل على أن للإسلام حدوداً دموية, فيبدأ من زمن الفتوحات الإسلامية, حيث وصل العرب إلى مدينة (تور بفرنسا عام ٧٣٢ م), ثم تجدد الصدام في القرنين الحادي عشر والثالث عشر من خلال الحروب الصليبية واحتلال الصليبيين للبلاد الإسلامية, ثم ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر في عهد الإمبراطورية العثمانية, ليحل محله في القرنين التاسع عشر والعشرين الصراع بين الاستعمار الأوربي وبين معظم شمال إفريقيا والشرق الأوسط, وبعد نهاية الاستعمار القديم تجدد الصراع بين الغرب والقومية العربية,كما ويتهجم الغرب على العرب في حروبهم ضد إسرائيل التي هي من صنع الغرب على حد اعتراف هانتنغتون في مقالته. إضافة إلى ذلك, يرى هانتنغتون أن هناك الإرهابيين الإسلاميين الَّذين شهروا السلاح في وجه الغرب, وقاموا بقصف الطائرات والمنشآت الغربية, وأخذوا رهائن غربية, وهذه الحرب بين العرب والغرب وصلت ذروتها عام ١٩٩٠ عندما حشدت الولايات المتحدة جيشاً جراراً أرسلته إلى منطقة الخليج العربي للدفاع عن بعض الدول العربية في مواجهة عدوان دول أخرى[٤].

ومن هنا تبرز فكرة العنصرية الثقافية في الغرب, فمنطق القبلية هو الَّذي يحكم تفكير كل من أخذ بفرضية (صدام الحضارات), فالخطاب التمويهي السائد في الغرب إنما يهدف إلى صرف الأنظار عن المصالح, وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها, ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل (الحضارة) و(الثقافة) و(الدين والأصولية) فعندما يشكو العرب من كون الغرب يطبق مقياساً مزدوجاً عندما يتعلق الأمر بعدوان إسرائيلي يرد

---

١ - محمد عابد الجابري ,"**قضايا في الفكر المعاصر**", مرجع سابق,ص ٩٩- ١٠٠.

٢ - محمد صادق إسماعيل , " **السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين بين الأبعاد الثقافية والحضارية والأبعاد الإستراتيجية** " ,مجلة السياسة الدولية , العدد ١٥١ , يناير , ٢٠٠٣ , ص٣١١.

٣ - صاموئيل هانتنغتون , " **صدام الحضارات ..إعادة صنع النظام العالمي** " , ترجمة طلعت الشايب , القاهرة , دار سطور, ط٢ , ١٩٩٩ , ص٣٥٢.

٤- محمد عابد الجابري, "**قضايا في الفكر المعاصر**", مرجع سابق, ص١١٦.

هانتنغتون بقوله: "إن عالم صراع الحضارات لا بد أن يكون عالم ازدواج المقاييس, تطبق فيه الدول مقياساً على الدول التي تماثلها وتربطها بها صلة قرابة, ومقياساً مختلفاً على الدول الأخرى"[١].

لقد كتبت مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية عام ١٩٩٦ كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية ستتمكن في المستقبل القريب من تعزيز سيطرتها السياسية على العالم, وذلك بفضل ما تتمتع به من قدرة لا مثيل لها في مجال إدماج منظومات الإعلام المعقدة بعضها في بعض, فالجيوبولوتيك, أو السياسة منظوراً إليها من زاوية الجغرافيا, وبالتالي الهيمنة العالمية أصبحت تعني مراقبة السلطة اللامادية, سلطة تكنولوجية الإعلام التي ترسم اليوم حدود الاقتصاد السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة, وهكذا فبدلاً من الحدود الوطنية القومية تطرح أيديولوجيا العولمة حدوداً أخرى غير مرئية ترسمها شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة[٢].

وبهذا فإن العولمة تتبنى, وتنشر أيديولوجيا معينة من عناصرها الأساسية محاربة الذاكرة الوطنية والتاريخ والوعي بالتفاوت الطبقي, وبالانتماء الوطني والقومي وبالتالي الوعي الأيديولوجي.

وعليه يتم توظيف الإعلام, ووسائل الاتصال الحديثة في عملية الاختراق الثقافي واستعمار العقول.

فكل الأدلة التي طرحها هانتنغتون إنما هدفه منها تجريم الإسلام , وتحميله مسؤولية الصدامات والحروب في الوقت الذي نسي فيه هانتنغتون سلسلة الحروب التي شهدتها المنطقة نفسها منذ فجر التاريخ, والتي بموجبها يمكن تجريم أوربا تجريماً أبدياً, ابتداءً من حروب الإسكندر المقدوني والبيزنطيين, فالحروب الصليبية ثم الحروب الاستعمارية سواء في إفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية وصولاً إلى العدوان الأمريكي الأخير على العراق.

---

١ -, محمد عابد الجابري, "**قضايا في الفكر المعاصر**", مرجع سابق ص١١٧.

٢ - المرجع السابق, ص١٤٥.

المطلب الثاني: العنصرية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ في أمريكا.

عاد الحديث مجدداً عن حوار الحضارات بعد أحداث الحادي عشر من أيلول, فقد حاول الغرب إرضاء العالم لاسيما الجزء الإسلامي والعربي منه بالحديث عن حوار الحضارات بديلاً عن صراع الحضارات, إلا أن حوار الحضارات هذا ما هو إلا من الطينة التي جُبلت بها نظرية صراع الحضارات البائسة, والحقيقة هي أن ثمة حضارة إنسانية واحدة لا عدَّة حضارات, وهذه الحضارة هي ذاتها التي أسهمت وتسهم في تغذيتها وإغنائها ثقافات الشعوب, والأمم والقوميات والأعراق المختلفة, كل منها حسب إمكاناتها ومستويات تطورها, وهذه الحضارة الإنسانية هي تأكيد للميل الموضوعي لوحدة العالم, وليست لتحويل العالم إلى قرية كبيرة يفرضها الشكل المشوَّه للثقافات المختلفة الناتج عن ظواهر عدوانية باسم العنصرية من جانب القوى الغربية المهيمنة من جهة, وعن العصبية والظلامية باسم الهوية من قبل القوى المقهورة من جهة أخرى[١].

فمنذ تسلم جورج بوش الابن الرئاسة الأمريكية في كانون الثاني ٢٠٠١ قامت الإدارة الجديدة بممارسة سلوك متشدد تجلّى في مجموعة من السياسات تعكس رؤية محافظة تجاه القضايا والملفات التي تتعامل معها, وأهم تلك السياسات هي تبنّي موقف دفاعي من قبل الولايات المتحدة لحماية قيمها, وأفكارها الأساسية من أية تأثيرات غير مرغوب فيها, وكذلك التحول إلى تبنّي موقف هجومي يهدف إلى إحداث تجدد لاهوتي لنمط الحياة الأمريكية ويتمثل الموقف الهجومي في شن حملة صليبية لإعادة فرض ما يسمى بالأخلاق الكتابية (نسبة للكتاب المقدس), وتحقيق ما سبق من خلال البرامج السياسية لبعض الأحزاب. وجاء ذلك على لسان فريق العمل في الإدارة الأمريكية, مثل (كوندوليزا رايس) مستشارة الأمن القومي سابقاً ومن ثَمَّ وزيرة الخارجية التي قالت: "إن القوة العسكرية الأمريكية يمكن أن تمنع الحروب, وتبرز السلطة وتقاتل في سبيل حماية مصالحها, وتعزز النمو الاقتصادي والانفتاح السياسي عبر نشر التجارة الحرّة, وتحديد علاقات قوية مع الَّذين يشاطرون القيم الأمريكية. "ولكن مع أحداث (١١) أيلول برز اليمين الديني والسياسي,وظهرت الإدارة الأمريكية وعلى رأسها جورج بوش لتستدعي أفكاراً مثل "إن أتتنا الحملات الإرهابية الإسلامية فستشهد الشر, إنهم يكرهون قيمنا, مسؤوليتنا أمام التاريخ الرد على الهجوم والتخلص من الشر, والحملة الصليبية ستأخذ وقتاً, إنها حرب حضارات". وتظهر مقولة صدام الحضارات, والتي تضع الغرب في مواجهة الآخرين (الإسلام, والمسيحية الشرقية) ويصدر بيان

١ - كريم مروة, "**من وحي الحدث الأمريكي– تأملات في عالم الغد**", مجلة الطريق, العدد السادس, السنة الستون, تشرين٢ وكانون أول, ٢٠٠١, ص٩.

المثقفين إبان تلك الأحداث , والَّذي مثل وثيقة فكرية تعبر عن اليمين في بعديه السياسي والديني, والَّذي يعمل على تبرير الحرب العادلة استمراراً لأفكار هانتنغتون [١].

ويلتقي الكاتب المصري رضا هلال في كتابه "المسيح اليهودي ونهاية العالم" مع مقالة هانتنغتون حول "صراع الحضارات" من حيث أن كليهما يعتمدان على الفرضية (الثقافوية) القائمة على إهمال جميع جوانب الواقع الاجتماعي عدا بعده الثقافي.

ولا بد من الإشارة إلى ما تخلص إليه أطروحة (رضا هلال) في كتابه المشار إليه أعلاه في انحياز الولايات المتحدة لدولة إسرائيل, ومساندتها بلا قيد ولا شروط في مشروعها التوسعي الَّذي يسعى إلى تصفية الوجود العربي في فلسطين على الأقل, كل ذلك يرجعه إلى أسباب ثقافية الطابع أكثر منها سياسية, إلاَّ أن هذا الانحياز بتعبير آخر هو لاهوتي المصدر, وليس انحيازاً استراتيجياً ناتجاً عن المشاركة في المصالح, حيث تقوم الأطروحة على فضح يمين مسيحي له نظرة دينية تدعو إلى مساندة الصهيونية, بحيث أن المسيحية طبقاً لهذا الفهم قد أصبحت (يهو – مسيحية), ويبحث في مصادر هذا الفهم للمسيحية, فيجدها في تاريخ الثورة البروتستانتية التي أعطت الأولوية لقراءة التوراة (العهد القديم) ولو على حساب مقولات الإنجيل (العهد الجديد) وتجلى ذلك في فصل الإنجيل المعنون بـ (الرؤيا) المنسوب إلى القديس (يوحنا), وأوضح بهذه المناسبة أن القصة المذكورة تقوم على تنبؤ بعودة اليهود إلى فلسطين, وإحياء دولتهم ثم عودة المسيح, فاهتداء شعب إسرائيل للمسيحية, ثم إنهاء العالم. وينطلق رضا هلال من وصف دقيق لظاهرة اليمين المسيحي الأمريكي المعاصر بعد وصول جورج بوش الابن إلى الرئاسة, وممارساته وخطوات صعوده لدى الرأي العام, ومدى اكتسابه نفوذاً داخل المؤسسة الحاكمة, وبالأخص في صفوف الحزب الجمهوري[٢].

وفي محاولة لنقد الكتاب السابق من قبل الكاتب المصري الشهير الدكتور(سمير أمين) يرى أن المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة هي التي توظف اليمين المسيحي, وليس العكس, حيث أنّ كلاً منهما يعمل لأجل مصلحة الآخر, وبرأيه أن البيت الأبيض يمارس ضغوطاً شديدة حتى على أولئك المسؤولين الأمريكيين حين يحاولون الإشارة إلى أخطاء أمريكا, وهكذا فقد قدّم (جيري فالويل) الواعظ الإنجيلي المسؤول في الجناح الأصولي من اليمين الأمريكي اعتذاره تحت تلك الضغوط عن أقواله يوم ١٨ أيلول ٢٠٠١ حين قال: "لقد سمح الله لأعداء أمريكا بأن يصيبونا بما نستحق ربما, فالوثنيون وأنصار الإجهاض ومؤيدو النسوية واللواطيون والسحاقيات

---

١ – سمير أمين, "**فخ الثقافوية, نقد كتاب رضا هلال (المسيح اليهودي ونهاية العالم)** ", مجلة الطريق,العدد الرابع , السنة الواحدة والستون, تموز – آب, ٢٠٠٢ , ص٢١ .

٢ – سمير أمين, "**فخ الثقافوية, نقد كتاب رضا هلال (المسيح اليهودي ونهاية العالم)** ", مرجع سابق, ص٣١.

والاتحاد الأمريكي للحريات المدنية, كل هؤلاء سهَّلوا وقوع هذا الحدث بمحاولتهم علمنة أمريكا, أقول لهم هــذا موجهاً نحوهم إصبع الاتهام"(١).

على كل حال فإن ثمة عاطفة حقيقة بين الرأي العام الأمريكي والمشروع الصهيوني, وبأنه لا شك في أن أسلوب قراءة التوراة عند (البوريتانيين) الإنكليز الَّذين شبهوا هروبهم من إنكلترا بهروب قدماء (العبرانيين) بحثــاً عــن أرض الميعاد حتى أصبحت أمريكا أورشليم الجديدة.هذا الأسلوب في قراءة التوراة قد لعب دوره في انتشار هذه العاطفة خارج الأوساط الأمريكية اليهودية لكن الدكتور(سمير أمين) ذهب إلى أبعد من ذلك, حيث يرى أن هناك عنصراً مشتركاً آخر وأقوى, وهو أنّ الثقافتين الأمريكية والإسرائيلية تقومان على نفس مبدأ الاســتيطان وإبــادة السكان الأصليين.

أمّا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول, فقد توضحت تلك الصورة بأعلى أشكالها فــالرئيس الأمريكــي الســابق جورج بوش, ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إريئيل شارون شخصيتان متطابقتان في السلوك السياسي, وقــد امتلكا نفس الخطاب الديني السلفي ذي البعد الإرهابي, فكثيراً ما استخدم بوش لتبرير حروبه على العالم تعــابير دينية مثل تقسيم العالم إلى (محور الخير ومحور الشر). ومحور الشر هو كل الدول المارقة التي لا تنسجم مــع سياسته بدءاً من إعلانه حروباً صليبية جديدة على الإسلام إلى وصفه لشارون بأنه رجل ســلام, وللفلســطينيين بأنهم قتلة, وممارسته سياسة التهديد والوعيد لدول العالم حين وضع العالم بعد /١١/ أيلول أمام خيار (من لــيس معنا فهو ضدنا), كما مارس الضغط على الأمم المتحدة حين هددها آنذاك بضرورة أن تأخذ دورها, وتتخذ موقفاً قوياً حيال العراق بحجة وجود الأسلحة النووية فيها, وأن تصرَّ على اتهام العراق بإعادة بناء ترسانته من أسلحة الدمار الشامل, وإقامة علاقات محظورة مع تنظيم القاعدة, وما هذا سوى ذريعة اتخذتها الولايات المتحــدة مــن أجل إقناع العالم بصحة ادعاءاتها, وكي تشكّل بواسطتها جسراً لتحقيق غاياتهــا فــي الســيطرة علــى ثــروات الشعوب, وكل يوم تخرج الولايات المتحدة وإسرائيل وبريطانيا باتهام جديد للعرب مثــل الملــف النــووي فــي العراق, وإعلان شارون بأن إسرائيل متضامنة مع أمريكا في حملتها ضــد الإرهــاب, والحفــاظ علــى القــيم الديمقراطية, وتأكيده أن الرئيس الأمريكي يقود الحملة ضد الشر والإرهــاب مــن أجــل الحفــاظ علــى القــيم الديمقراطية, وبأنهم في إسرائيل يكافحون الإرهاب الفلسطيني, وفي الوقت الَّذي تؤكد فيه إســرائيل التــي هــي صنيعة أمريكا, وربيبتها أن العراق من قوى الشر, لا يحق له أن يمتلك أسلحة الدمار الشامل, فإنها فــي الوقــت نفسه تدافع عن حقها في امتلاك هذه الأسلحة, لأنها لن تكون بمنظور أمريكا من قوى الشــر, وبــدأت أمريكــا

---

١ - ستيفن كليمونس, "**حرب شاملة ضد خطر متفشٍّ – الولايات المتحدة إفراط في الجبروت**", مجلة الطريق, العدد السادس, السنة الستون, تشرين ثاني- كانون أول, ٢٠٠١, ص٢١.

العظيمة الجريحة تبحث في خبث, وفي أشكال شتى من الترهيب والترغيب عن حلفاء من كبار العالم وصغارهم من الظالمين والمظلومين بما في ذلك الأمم المتحدة من أجل إعلان الحرب على هذا الخصم الجديد الكبير[1].

وراحت أمريكا تفتش عن طريقة تمنحها مشروعية استخدام القوة في العلاقات الدولية وخاصَّة أن كل المعاهدات منذ معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى مروراً بحلف (كيلوج برايان) الأمريكي – الفرنسي عام ١٩٢٤, واتفاقية عام ١٩٤٥ بين أمريكا وفرنسا والمملكة المتحدة واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية, حتى ميثاق طوكيو عام ١٩٤٦, كل هذه كانت تدعو إلى نبذ الحروب, واعتبارها جريمة تُعاقَب عليها كل دولة تشن هجوماً مسلحاً على دولة أخرى, وليس معنى ذلك منع أية دولة من استخدام القوة دفاعاً عن النفس, إلا أن الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في كلمته في (وست بوينت) عام ٢٠٠٢ قد استخدم عبارة "الاستخدام الوقائي للقوة من طرف واحد كمعادل للدفاع عن النفس توقعاً للخطر"[2].

أما عن مصطلح الاستخدام الوقائي للقوة, فهو من نتاج العالم الاجتماعي الألماني المعاصر (هانز جوناس) الَّذي أفرد للعلاقة بين الحرب ونظرية التحديث مساحة كبيرة, أما الفيلسوف الليبرالي الإنكليزي السير (كارل ريموند بوبر) الَّذي أجاب عن سؤال لمحرري مجلة (دير شبيجل) الألمانية عام ١٩٩٢ عن من هم الأعداء الجدد للديمقراطية الليبرالية الغربية, عندما قال: "إن الواجب على الغرب هو أن يكون السلام اليوم هو هدفه الأول, لكن هذا صعب التحقيق هذه الأيام في عالم يحيا فيه أناس مثل صدام حسين وأمثاله من الديكتاتوريين, ولا يجب على الغرب أن يفزع من أن الحرب هي ما سيقود إلى السلام, وهي الحرب التي لا يمكن تجنبها في الظروف الحالية, إنّه أمر مؤسف ولكننا مضطرون لفعل ذلك إذا أردنا أن ننقذ عالمنا, فالقرار هنا ذو دلالة حاسمة"[3].

هذه هي رؤية كارل بوبر لمشكلة الحرب في التاريخ, فهو يزعم أنّ معظم الحروب في العصور الحديثة, كان دافعها الخوف من العدوانية لا العدوانية الشخصية, فهي إما حروب أيديولوجيّة يدفعها الخوف من قوة تآمر ما, أو حروب لم يرغب فيها أحد, وإنما نجمت عن الخوف من موقف موضوعي, وكمثال هنا, الخوف المتبادل من العدوانية الَّذي يؤدي إلى سباق التسلح, ومن ثم إلى الحرب, وربما إلى حرب وقائية كما أشار الفيلسوف برتراند راسل عدو الحرب والعدوانية عندما تخوّف على حق من أن تتمكن روسيا من القنبلة الهيدروجينية: "ليس هناك

---

١ – سمير أمين," **فخ الثقافوية نقد كتاب رضا هلال(المسيح اليهودي ونهاية التاريخ)**", مرجع سابق, ص٣١.

٢ – شريف بسيوني, "**الحرب الأمريكية في العراق– مشروعية استخدام القوة**", مجلة السياسة الدولية, العدد ١٥١,يناير ٢٠٠٣, ص١٦.

٣ – أحمد فاروق عبد العظيم,"**ليبرالية الحرب– النظرية السياسية الليبرالية ومعضلة العنف, الخطاب حول العراق نموذجاً**" مجلة السياسة الدولية, العدد ١٥١, يناير, ٢٠٠٣, ص٤٦.

من يريد القنبلة, لقد كان الخوف من أن يحتكرها هتلر, هو الَّذي أدى إلى صناعتها", وتأسيساً على ما سبق يرى بوبر أن المجتمع الدولي تحكمه حياة أشبه ما تكون بحالة الطبيعة, التي تحدَّث عنها هوبز, ويتحقق بها الأمن والسلام على مستوى الدولة الواحدة. لقد عادت هذه الخطوة العريضة التي شدد عليها بوبر المحب للسلام (إنقاذ عالمنا), (شن الحرب من أجل تحقيق السلام), (منع استخدام أسلحة الدمار الشامل بالعنف), (الحرب الوقائية), (المسألة التي تخص بقاء البشرية), عادت هذه الخطوط لتسيطر على الخطاب السياسي والثقافي الأمريكي عن العراق, وما سمي وفقاً لمذهب بوش (محور الشر بعد أحداث ١١ أيلول), حيث يزعم أن توفر أسلحة دمار شامل لم يعد يسمح لأمريكا بالاسترخاء وانتظار الهجوم أولاً, وعليه يجب خوض حرب وقائية متى تطلَّب الأمر, ولاحقاً تحولت المعركة إلى حرب تقودها قوات تحالف دولي حفاظاً على السلام والأمن ضد الدول المارقة, والتي لا يحكمها أي مبدأ أخلاقي. إن السؤال الَّذي يفرضه التطابق المدهش للوهلة الأولى في رؤية الموقف من قبل فيلسوف ليبرالي كبير هو كارل بوبر, ورئيس أكبر دولة ديمقراطية ليبرالية في العالم هو جورج بوش, تمخّض عنه ما يُطلق عليه اسم (ليبرالية الحرب) أي أن الديمقراطية الليبرالية الغربية تصدر في معالجتها للمشكلة عن تصور أساسي لمشكلة العنف والحرب, هذا التصور هو الَّذي يمكن من خلاله فهم الخطاب الثقافي والسياسي الليبرالي عن الحرب, والعنف بشكل عام, والحرب على العراق بشكل خاص[١]. ومن جهة أخرى تحاول كل من أمريكا والغرب التأكيد على أنها ليست ضد الإسلام, فالإسلام ممتاز, ولكنّ المسلمين قسمان: معتدلون ومتطرفون, وقد اختطف المتطرفون الإسلام, وعلى المعتدلين استعادته. هذا ما عبر عنه المفكرون الأمريكيون في رسالتهم للمسلمين في ١٢ شباط ٢٠٠٢, عندما دعوا المسلمين المعتدلين لمشاركتهم في الحرب على المسلمين المتطرفين إنقاذاً للإسلام, ولأنفسهم وللقيم الحضارية والإنسانية, هذا هو الخطاب الغربي الَّذي يتصف بالبراغماتية, إلا أنه يدرك في باطنه بأن الإسلام ليس مصدر تهديد لاعتبارات سياسية, أواقتصادية فقط, ولكن لاعتبارات قيمية وثقافية أيضاً, فضلاً عن المخاوف من تزايد الوجود الإسلامي في الغرب[٢].

هذا ما كان قد بيّنه (هانتنغتون) عندما قال: "إن المشكلة المهمة للغرب ليست في الأصولية الإسلامية بل الإسلام, فهو حضارة مختلفة, مقتنع بتفوقه الثقافي, وهاجسه ضآلة قوته, المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات

---

١ – أحمد فاروق عبد العظيم,"**ليبرالية الحرب– النظرية السياسية الليبرالية ومعضلة العنف, الخطاب حول العراق نموذجاً**", مرجع سابق, ص٤٧–٤٨.

٢ – محمد صادق إسماعيل, "**السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين بين الأبعاد الثقافية والحضارية والأبعاد الإستراتيجية**", مرجع سابق, ص٣١١.

المركزية, ولا وزارة الدفاع, المشكلة هي الغرب, حضارة مختلفة, شعبها مقتنع بعالمية ثقافية ويعتقد أن قوته متفوقة" [١].

ويقول (برنارد لويس) أحد أقطاب الاستشراق: "إن الإسلام شيء واحد, وإنه بالتالي لأمر خطير بأن تغفل الإنسانية دوره في النظام الدولي, بحيث أنه يتماثل مع خطر ستالين الشيوعي, وهتلر النازي" أما (دانييل بايبس) الرئيس السابق لمعهد البحوث السياسي في جامعة فيلادلفيا, فقد أوصى الإدارة الأمريكية والدول الغربية بمواجهة الخطر الإسلامي بأعتى أنواع الطرق, وعدم فتح أية قناة للحوار مع الجميع, وليس فقط المتعصبين منهم, ذلك أنهم يشكلون خطراً فادحاً على الحضارة الإنسانية[٢].

وتحت عنوان البحث العلمي والموضوعي يحاول الكثير من الباحثين العنصريين الغربيين ترويج نظريات عنصرية ضد العرب والإسلام, فعلى سبيل المثال يصرح (فرانسيس فوكوياما) صاحب نظرية (نهاية التاريخ) بأن العالم الإسلامي لا يزال يقاوم الحداثة, لكن هناك إمكانية لتحقيق اختراق في الجزء غير العربي, إن المجتمعات العربية مجتمعات نامية, وبدرجات متفاوتة,وهي تعاني مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية متشابهة أو مشتركة مع المجتمعات النامية الأخرى في العالم, كما تعاني مشاكل خاصَّة بها.

إن ما يهم من هذا هو أن الإطار النفسي القائم واللحظة التاريخية الراهنة التي يجري فيها التركيز الفكري والسياسي الشديد لبحث الأمراض العربية وأعراضها تصب ولو عن غير قصد عند البعض الأجنبي في بلورة نظام إقليمي ومجتمعات عربية (غير طبيعية) من حيث مشاكلها, وكأنها (فريدة) في نوعية هذه المشاكل, أو كأنها تعيش في فراغ دولي, وخارج أي سياق تاريخي, وتبرز وكأنها المصدّر الأساسي للمشاكل والمتاعب إلى العالم أجمع دون أن يكون البعض من هذا العالم قد ساهم أو يساهم جزئياً في صناعة المشاكل, مما يجعل العرب في علاقة اضطراب مع العالم, لقد أكد روجيه غارودي على ضرورة الحل بقوله: "إن المشكلة الأساسية في الثقافة الغربية هي التطور التسلطي الَّذي يجب أن نقضي عليه"[٣], مشيراً إلى ضرورة الإسهام في تغيير المفاهيم الغربية من خلال "إسباغ النسبية على مفهومنا الغربي وتحويل رؤيتنا للعالم عن تركيزنا على (ذاتنا) الصغيرة وفي اكتشاف غايات أخرى للتنمية وتعريف آخر للنمو"[٤].

---

١ - صاموئيل هانتنغتون, "**صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي**", مرجع سابق, ص٣٥٢.

٢ - عبد الله يوسف, "**السلام بين العرب وإسرائيل, البعد الثاني من الرأي المعارض**", مجلة السياسة الدولية, العدد ١٥٠,أكتوبر, ٢٠٠٢, ص٤٠.

٣ - روجيه غارودي, "**في سبيل حوار الحضارات**", ترجمة عادل العوا, بيروت, منشورات عويدات, ط١, ١٩٧٨, ص٩٣.

٤ - المرجع السابق , ص١٩٠.

وبالتالي فإن أوضح ما يميز العنصرية الغربية في الفكر المعاصر هو توجهها نحو الإسلام بشكل مطلق, وشامل من كل النواحي أيديولوجياً وثقافياً وإعلامياً وسياسياً واقتصادياً, فظهر هذا العدو الجديد (الإسلام) وحيداً بالنسبة للغرب, وقد يوصف بأنه شبه أوحد إذا ما تم اعتبار الحضارة الكونفوشيوسية (الصينية) عدواً آخر للغرب, إلا أن هذه الحضارة لم تبلغ في الحقيقة ولو جزءاً بسيطاً من العداء الذي تعرض له الإسلام, والدول الإسلامية.

هذا ما يميز النزعة العنصرية في الفكر المعاصر, إذ أنّ كل أشكال العنصرية في الفترات السابقة من داروينية وفاشية ونازية قد وَجِّهت ضد كل من سواها, من غير تحديد لأسباب احتقار شعب دون شعب, وأمة غير أمة بشكل شامل مطلق وصريح, بل أنها وضعت نفسها في أعلى السلم البشري, وادعتْ تفّوقها وتميّزها, وبالتالي أحقيتها في السيطرة على العالم.

حتى الاستشراق الذي وضع الشرق كطرف نقيض معادٍ للغرب لم يستثني أي جزء منه, بل كانت عنصريته واضحة تجاه الشرق بأكمله.

كذلك الصهيونية التي تسخر الدين اليهودي لتحقيق مآربها الاستعمارية التوسعية في المنطقة العربية, فإنها تحتقر جميع الأديان غير اليهودية, وتقدّم أدلّتها على أن اليهود هم شعب الله المختار من خلال نصوصها الدينية, وتاريخ اليهود في ألمانيا وروسيا ومختلف دول أوربا والعالم يدلل على هذه النظرة الفوقية وعلى النزعة العدائية والسلوك السلبي في كل مكان يقطنون فيه....

إلا أن العنصرية الغربية في الفكر المعاصر اتخذت شكلاً آخر, وحددت العدو, وبطريقة مطلقة واضحة, ورسمت حدوده حول الإسلام كاملاً, وهنا يتجسد ما تم استعراضه في سياق هذا المبحث في أن الجوهر – الذي التقى عنده الكثير من مفكري العنصرية الغربية, وعلى رأسهم صاموئيل هانتنغتون – هو أن المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست في الأصولية الإسلامية, بل الإسلام لأنه حضارة مختلفة تماماً, ومقتنعٌ بتفوقه الثقافي, وهاجسه ضآلة قوّته.

ـ الفصل الثالث : دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق, وأساليبه.

- المبحث الأول: دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق.
  - المطلب الأول: دافع أيديولوجي.
  - المطلب الثاني: دافع فلسفي.
  - المطلب الثالث: دافع مادي اقتصادي.
- المبحث الثاني: أساليب الغرب العنصرية تجاه الشرق.
  - المطلب الأول: الدور الفكري والثقافي الغربي.
  - المطلب الثاني: المؤتمرات والمنظمات الغربية.

الفصل الثالث : دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق, وأساليبه .

إن أكبر دافع للعنصرية هو استغلال ونهب ثروات الشعوب, وتحقيق المكاسب المادية, وما بقية الدوافع كالـــدافع الأيديولوجي أو الدافع الفلسفي مثلاً سوى ذرائع تخفَّت تحتها الدول الغربية الاستعمارية لتبرير استعمارها للـــدول الأخرى .

إن كل الخلافات الأيديولوجية والتاريخية سوف تزول في حال انتفاء الجانب المادي الاقتصادي, أو علـــى أقـــل تقدير لن تكون من القضايا التي يتم الاكتراث بها, وابتكار النظريات التي تؤكدها, وإشعال الحـــروب بشـــأنها . وأكبر مثال على ذلك ما يحدث بين دول أوربا والولايات المتحدة الأمريكية, أو بين دول أوربا نفسها حـــين يـــتم تجاوز كل الحروب التاريخية التي اشتعلت بينها وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى فالثانية أكبر كـــارثتين فـــي تاريخ البشرية, إلاَّ أنه وخلال فترة قصيرة تم التكتُّم عن كل هذه المآسي والصراعات التاريخية, وتحولت بعـــدها إلى دول تتعاون في مجالات شتى, وتقيم أنواعاً من الاتحادات, وعلى رأسها الاقتصادية ناسيةً أو متناســـية كـــل الخلافات والحروب الماضية فيما بينها لتوجِّه أصابع الاتهام والإساءة إلى الدول الأضعف, مبينةً أنه من حقها أن تسيطر عليها تحت ذرائع أيديولوجية وفلسفية, مستخدمةً كل الوسائل لتحقيق غاياتها, وذلك ما سيتناوله الباحـــث في هذا الفصل.

المبحث الأول: دوافع الغرب العنصرية إزاء الشرق.

المطلب الأول: دافع أيديولوجي .

إن عنصرية الغرب ضد الشعوب الآسيوية و الأفريقية لا تعود إلى العصر الحديث, بل إنها ترجع إلى العصور الوسطى, وربما إلى ما قبل ذلك بكثير, وإن ما يحرِّك هذه الدواعي هي روح العداء الأبدي المتأصل في الغرب إزاء الشرق, فالغرب يرى أن لا سبيل إلى تعايش سلمي بين الحضارة الغربية الرومانية الراقية و بين العقلية الهمجية و البربرية الآسيوية الشرقية المتخلفة(١).

وقد تجلى هذا منذ أواخر القرن الثالث للميلاد, حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي وأخذ كل قسم يشق طريقه نحو عالم مختلف عن عالم القسم الآخر, و لا يخفى أن هذا الانقسام كان في حقيقته تعبيراً عن الفروق الحضارية بين شطري الإمبراطورية, وعن التباين بين حضارتين وعقليتين ونظرتين مختلفتين في الحياة, حيث كان الغرب اللاتيني ميالاً إلى الاهتمام بالجوانب العملية للسياسة, بينما العقل اليوناني في الشرق كان أكثر اهتماما بحل المشاكل اللاهوتية باتجاه فلسفي, و كل هذه الفروق الحضارية إضافة للفروق اللغوية و الاقتصادية تحكمت في العلاقات بين الشرق والغرب والتي ازدادت فجوتها بشكل أكثر حدة في أواسط القرن الحادي عشر عندما انفجرت العلاقات بين الكنيستين الغربية والشرقية عام (١٠٥٤) تحديداً والَّذي اصطلح على تسميته بالقطيعة الشرقية (٢), ففي الوقت الَّذي كان فيه الشرق يُخضِع العقيدة الدينية للجدل الفلسفي فإن الغرب رفض مناقشة حتى القضايا الأساسية في مجال العقيدة والإيمان, وبالتالي فقد كان هناك رأي عام وناضج تجاه المسائل اللاهوتية في الشرق, بحيث لم يتردد في توجيه النقد إلى الكهنوت والإمبراطورية, فإن الرأي العام في الغرب كان مفقوداً بهذا الخصوص إلى حدٍّ بعيد، ومفهوم العقيدة والإيمان في أوساطه كان محلياً وصارماً, ومنذ ذلك الوقت مضت كل من الكنيسة الكاثوليكية الغربية في طريقها, والأرثوذكسية الشرقية في طريقٍ بعيدةٍ عن الأخرى, وكان للحرب الصليبية الدور الأساسي في تأكيد هذه القطيعة وترسيخها عندما أمدت الشعبين – الإغريقي واللاتيني – بروح الكراهية وأنزلت مسألة الخلافة الكنسية والعلاقات بين الشرق والغرب إلى المستوى الشعبي، وفي هذا السياق يقول الكاتب رنسيمان: "إن الصليبيين لم يجلبوا السلام, وإنما جلبوا السيف الَّذي مزق العالم" (٣).

---

١ – أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق ، ص٣٧.

٢ – عادل زيتون, "**العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى**", دمشق, دار دمشق, ١٩٨٠, ص٤٠٢.

٣ – المرجع السابق ،ص٣٧١ .

وهكذا حصل الانشقاق الكبير بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية نتيجة الحملة الصليبية الرابعة بالنسبة للقسطنطينية, وليس من خلال الانشقاق القانوني الذي حدث سنة ١٠٥٤م[١].

لقد استقر في ذهن الغرب أن مسيحيي الشرق أجانب عن الغرب منذ الانشقاق الَّذي حدث في الإمبراطورية الرومانية, ومنذ أن دانوا بالولاء لبيزنطة, وبالتالي فإن الشرق المسيحي عاصٍ ومتمرد على سيادة وسلطان الكنيسة الغربية ولكن في الحقيقة لم تكن النزعة الدينية هي الباعث الحقيقي على الحرب التي شنها الغرب ضد الشرق بل كانت كراهية الغرب وحقده على الجنس السامي هي الباعث الحقيقي, متستراً بستار الدين فهم يرون أن مشاعر الشرقي وأحاسيسه لا يمكن أن تتغير بتغير عقيدته الدينية والمذهبية فهو- على أي دين أو على أي مذهب كان- أجنبي عن الغرب لا تربطه به وحدة التقاليد وأسلوب التفكير ودوافع السلوك الخلقي, فالإسلام كان بالنسبة لهم خلال قرون عديدة يعتبر أكبر وأخطر عدو يمدّ سيطرته من إسبانيا حتى سوريا إضافة لقناعاتهم بتفوق الدين الإسلامي وتفوق العرب الحضاري آنذاك , أمّا مسيحيو الشرق فقد درج كتَّاب الغرب ومؤرخوه على تسميتهم بـ(المشارقة) وهم في النتيجة أبناء وطن واحد ومن جنس واحد [٢].

إلاَّ أنَّ هذا العداء تجلّى بأشد صوره في القرن الثامن عشر عندما بدأ عصر التنوير في أوربا، وحلت الأيديولوجيا الثورية التي مجدت العقل والتقدم وتنامت لديها مع الوقت الفكرة القائلة: إنه لا يمكن للشرق أن يخرج من تقوقعه إلاَّ بالاندماج بتاريخ الغرب، وسرت كالنار في الهشيم صورة الشرقي الظلامي الحالم الكسول والمفطور على الجهل ، والعصي على التمدن بحكم أنظمة سياسية ودينية تمنع التطور وتقمع الإنسان[٣]. ولعّل أكثر ما يثير فزع الغرب من الثقافة العربية الإسلامية هو استمرار وجود هذه الثقافة وصحوتها الحديثة رغم تعرضها للتهميش والإلغاء طوال سنوات, حيث ازدادت هذه المخاوف منذ استقلال كل الدول العربية وأصبحت فيها ركائز تحركات الكفاح ضد الاستعمار. وجاءت الثورة الإسلامية المفاجئة في إيران وكانت ضد كل التوقعات لدى الباحثين وكان هذا التحرك الإسلامي أكثر ما أثار فزع أوربا إلى حد الاتهام للإسلام بأنه العدو الباقي للغرب بعد أن زالت النازية وسقطت الشيوعية. هذا ما أوضحه الكثير من المفكرين والمسؤولين الغربيين وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي السابق نيكسون، وكذلك صاموئيل هانتنغتون عندما تحدَّث عن صدام الحضارات وقال إنَّ الصراع سيكون بين الحضارة الغربية من جهة, والحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية من جهة أخرى، وهنا يحضر الباحث ما رآه الدبلوماسي الألماني مراد هوفمان في كتابه "الطريق إلى مكة" أنه عندما

١ – إدمون رباط ، "**المسيحيون العرب – دراسات ومناقشات**" ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨١، ص ٨٦

٢ – أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص ٣٩

٣ – جان جبور, "**بين التاريخ والسياسة من الذي يصنع الثورة**", صحيفة المستقبل, عدد٨٧٧, ٢٠٠٢/٣/٣٠ , ص٨

أعلن إسلامه وذهب إلى موسم الحج أرسل إلى أمه رسالة من مكة ولكنها رفضت حتى فتحها وهي تقول: فليبقَ عند العرب. إضافة إلى الاتهامات التي انهالت عليه من قبل الغير, مؤكداً عدم وجود أي تعليق أو دهشة أو رفض تجاه الممثل الأمريكي " ريتشارد غير " عندما أعلن اعتناقه البوذية. ويرجع هوفمان سبب موقف أمه هذا إلى الفزع الَّذي يسكن قلوب الأوربيين تجاه كل من هو عربي وإسلامي, فأوربا التي تتسامح مع البوذيين والوثنيين وعبدة الشياطين لا تستطيع أن تنسى ذلك الفزع التاريخي الَّذي تتوارثه الأجيال من المنازعات الحربية بين العالمين المسيحي والإسلامي في القرون الوسطى [١].

فقد لعبت الحروب الصليبية دوراً كبيراً في ثبات صورة العربي والمسلم داخل ثنايا المركزية الأوربية حتى الآن, فأوربا لم تُهَزم عسكرياً فقط على أرض فلسطين, ولكنها أيقنت أنَّ هؤلاء هم أصحاب حضارة كبرى مزدهرة تتفوق على حضارتهم, وقد أزعجت هذه الحقيقة أوربا وأثارتها, وما زالت أية يقظة للإسلام توقظ كل مخاوف الفزع القديم هذه[٢] .

برز هدف "برنارد لويس " في مقالته " التصورات الإسلامية للثورة " عندما حاول أن يؤكد أن الإسلام ظاهرة جماهيرية مخيفة ، ظاهرة قطيعية، أو جماهيرية لا عقلانية تسيطر على المسلمين بالانفعال الشديد والغريزة والأحقاد الجارفة، إنَّ غرضه من هذا هو أن يخيف جمهوره ويجعله يرفض أبداً أن يتنازل للإسلام ولو بأدنى حد، ويؤكد ذلك بوصفه المسلمين بأنهم مثل معظم الشعوب المستعمرة سابقاً, عاجزون عن أن يقولوا الحقيقة أو حتى أن يروها وهم مدمنون على الأسطوريات كما المدرسة التنقيحية في الولايات المتحدة والتي تنظر إلى الوراء إلى عصر ذهبي من الفضيلة الأمريكية وتعزو جميع الآثام والجرائم في العالم عملياً إلى المؤسسة الحاضرة في بلادهم[٣].

وهكذا غدت صورة العربي ترتبط بالفسق والخيانة والانحطاط مزمجراً في وجه البطل الغربي المأسور، وخلف هذه الصورة يتربص خطر الجهاد المهدد، وأن يحتل المسلمون أو العرب العالم, فالعرب في نظرهم أساساً قتلة, والعنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية .

وبالتالي فقد استمر الغرب مناوئاً كل قوة تبدو في الشرق, فنقل عداءه لبيزنطة ثم للعرب المسلمين عند قيام دولتهم وحولها بعد ذلك إلى العثمانيين. ونظر الغرب إلى الثقافة العربية بوصفها أحد الأسلحة الموجهة ضد

---

١ – مراد هوفمان, " **الطريق إلى مكة**" ,القاهرة, دار الشروق, ١٩٩٨ , ص٤٢

٢ – سليمان العسكري," **ثقافتنا العربية وثقافتهم الغربية**", مجلة العربي, العدد ٥٢٢, أيار , ٢٠٠٢, ص٩-١٠.

٣ – إدوارد سعيد ، "**الاستشراق**" ، ترجمة كمال أبو ديب ، بيروت, مؤسسة الأبحاث العربية. ط٢، ١٩٨٤ ، ص٣١٤

عقيدته والتي تختلف وتتضاد معه, والسبب الأساسي في ذلك هو أن الإسلام يمثل جزءاً أساسياً من مكونات الثقافة العربية كان هذا طيلة القرون الماضية مروراً بفترة الحروب الصليبية.

فالثقافة العربية مُتَّهَمة بأنها مشجعة للإرهاب, وقد أصبح هذا الاتهام سائداً في نظر الغرب, وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، أما التهمة الأخرى الموجهة للثقافة العربية فهي معاداتها للفكر الديمقراطي بمفهومه الغربي. فالثقافة العربية حسب رأي الغرب غير قائمة على التسامح والاعتراف بالتنوع, ولا تمتلك التقاليد اللازمة للاعتراف بالآخر, ولا تعترف بالمعايير التي تضعها الدول المعاصرة لحقوق الإنسان .

المطلب الثاني: دافع فلسفي .

لقد تغلغلت الروح العدائية في صميم حياة الغربيين تجاه الشرق منذ قرون بعيدة واصفين أنفسهم بـ (حملة رسالة إنسانية إلى العالم المتخلف) مبتدعين نظرية سياسية حقوقية لتسويغ عدوانهم المستمر على البلاد العربية عرفت في التاريخ الحديث باسم (المسألة الشرقية)، ويرجع المؤرخون الغربيون بداية ظهور المسألة الشرقية إلى أول صراع قام بين الفرس واليونان ويعتبرونها قد نشأت بشكل فعلي منذ حروب هرقل مع كسرى عام ٦١٤ م ثم بعد دخول العرب المسلمين إلى بيت المقدس واسترجاع بلاد الشام من الإمبراطورية البيزنطية [١].

إن أي مراجعة موضوعية لتاريخ الغرب لا يمكنها إلاّ أن تؤكد حاجة الغرب إلى (الخارج) إلاّ أن اختلافاً واضحاً يفرض نفسه على طبيعة هذه العلاقة بين الغرب وهذا(الخارج), فقبل النهضة كان الخارج يقرر مصير الغرب أما بعدها فإن الغرب صار صاحب المبادرة في تقرير مصير الخارج, وفي كلتا الحالين يستحيل تصور الغرب بدون علاقة مع بقية العالم ومن الطبيعي أن يستوي هذا المبدأ على ثنائية العلاقة بين طرفين: (الذات والآخر)، (القوي والضعيف)، ثنائية ترافقت باستمرار مع حاجة الغرب الوجودية إلى أن يكون متحداً ليس فقط بذاته وإنما أيضاً وبصورة حاسمة ضد الآخر (ضد الخارج) شعوباً وثقافات. وفي مختلف مراحل تاريخه لم يتعود الغرب على الاستمرار إلاّ من خلال استناده إلى علاقة ضدية مع أنموذج آخر .وقد تكررت هذه العلاقة الضدية مع " الخارج " أكثر من مرة وكانت من أهم العوامل التي قامت عليها وحدة الغرب الجماعية حول هويته الثقافية, وهذه الوحدة ضد الآخر قد رافقت الغرب في مختلف مراحل تطوره: " في القرن السادس عشر في إسبانيا مع الموريسك، وفي الشرق مع الأتراك, وكذلك إبان الحروب الصليبية، وأيضاً خلال الاكتشافات الكبرى،

---

١ – أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص ٣٨.

وأخيراً بعد التوسع الاستعماري الكبير في القرن التاسع عشر", فتأكد بالتالي لديهم الرجل الأبيض المتماسك ضد كل ما هو غيره، وبالنتيجة فإن الأوربيين لم يتوحدوا إلاَّ ضد أحد ما [1] .

لقد تماهت عالمية الغرب باستمرار مع تناقض قاطع بين الغرب وغيره ، تناقض مدروس ومُعَدّ بدقة تبدو معه العالمية مرآة للغلبة وليست على الإطلاق سيرورة للانفتاح .

وبالتالي فإنَّ هذه العالمية – رغم دلالاتها المساواتية – تعمل على تعميق الحد الفاصل بين فئتين من الناس والعوالم والثقافات: (شرق – غرب),(أسياد – عبيد),(أبيض– ملون)،(مركز – أطراف) إلخ.. ودائماً يكون أحدهما – المتجلّي بالغرب – هو الغالب.

حتى تجاه المسيحية كان يؤدي دوراً مزدوجاً, فقد ظهرت المسيحية وكأنها في تناقض مع الحضارة عندما يتعلق الأمر بقضايا الداخل, فالعالمية الممثلة لحضارته لم تخرج عن سياق المواجهة التي جرت في الداخل ضد الكنيسة على امتداد سنوات النهضة وقبلها بقليل, حيث خاض ضدها معركة الوجود الحر لعقلانية النهضة انتصر فيها العقل على التفكير الديني وترافق معه تحجيم متزايد للمسيحية, أما عندما تكون المسألة مرتبطة بالخارج تظهر المسيحية باعتبارها الدلالة المحركة لأوربا على المسرح العالمي, حيث يبدي الغرب مسيحية نافرة تجاه (الآخر) على الأقل طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[2].

وحتى بالعودة إلى الحروب الصليبية يُلاحظ أن الدوافع الرئيسية لهذه الحروب تجلت في سعي الكنيسة الغربية لتثبيت مكانتها ونفوذها على المسيحيين في الشرق [3] .

إن المتابع للإنتاج الفكري الغربي يلاحظ بروز تيار قومي عنصري ومؤثر ينظر إلى الشرق كعدو, خاصَّة في ظل حالة الانتصار التي يعيشها الغرب بعد عدَّة سنوات من انتهاء الحرب الباردة ورغم أن هذا العدو الجديد المفترض لا يملك من مقومات القوة العسكرية ما يهدد الغرب, إلاَّ أنَّ الإعلام الغربي يعتمد تقديم صورة للعرب والمسلمين تجمع بين الضعف والتخلف والإجرام والإرهاب والتطرف وسفك الدماء.

إنَّ وضع الإسلام في خانة العدو الجديد أمر يجب الالتفات إليه والتغلغل في أسبابه ودوافعه, فمنذ الحرب العالمية الأولى والمؤرخون الأمريكيون يمارسون ما يدعونه بـ (الهندسة التاريخية) والتي عبَّر عنها بشكل دقيق المؤرخ الأمريكي توماس بيلي بقوله: " لأن الجماهير قصيرة النظر إلى حد فضائحي, ولأنها عاجزة عن رؤية

---

١ – علي الشامي ، "**الحضارة والنظام العالمي ، أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**", بيروت،، دار الإنسانية ، ١٩٩٥ ، ص١٧٠.

٢– المرجع السابق , ص ٢٨٦ .

٣- أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص ٣٩.

الخطر قبل أن يطبق عليها الخناق, فإن سياسيينا مضطرون لممارسة خداعهم من أجل توعيتهم بمصالحهم بعيدة المدى" [١]. وهذه الفكرة تدعو إلى التدخل في الإعلام من أجل قولبة الرأي العام كما يؤكد ذلك صاموئيل هانتنغتون قبل انهيار الاتحاد السوفييتي إذ يقول: "إن علينا أن نروج لفكرة التدخل بحيث نخلق انطباعاً رائعاً مفاده أنَّ الاتحاد السوفييتي هو الَّذي نقاتله..... ذلكم هو ما فعلته الولايات المتحدة منذ مبدأ ترومان". كما يصف المؤرخ (أرنولد توينبي) الغرب بأنه: يبحث عن عدو لكي يشبع النفسية الغربية التي تقوم على التحدي حيث بنى الغرب فلسفته في البقاء على هذه النظرية ومن هنا كانت الحرب الباردة التي استمرت عقوداً من الزمن. وبعد انتهاء الحرب الباردة كان لابد من استمرار حالة التحدي هذه فتمّ إحلال العالمين العربي والإسلامي محل الاتحاد السوفييتي, وقام الغرب بإظهارها مكمن الخطر الدائم عليه [٢].

أما فوكوياما الَّذي أرجع كل تصرفات وأفعال البشر إلى تلك الرغبة, والتي أطلق عليها اسم(الثوموس) كان قد اعترف بالمفهوم الهيغلي (جدلية السيد والعبد) معتبراً العالم الثالث وجوداً ضرورياً للغرب لامتصاص الطاقات والطموحات [٣].

كما وتجري في الإعلام الغربي عملية (تعريب الإرهاب وأسلمته), واعتبار العالمين العربي والإسلامي دريئة إعلامية يتدرب عليها الغرب في مواجهة عدوّ وهمي.

ويقول المستشرق دنس عن الاستشراق – الَّذي يهدف إلى فهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة إعادة توجيهه والتحكم فيه – يقول: "إنه مفهوم جمعي يحدد هويّتنا نحن – الأوربيين – كنقيض لـ أولئك الَّذين ليسوا أوربيين". وقد دعم الاستشراق– كما يذهب إلى ذلك إدوارد سعيد – من قبل الضغوط الثقافية العامة التي كانت تميل إلى أن تزيد صلابة الحس بالتمايز بين الأجزاء الأوربية والآسيوية من العالم, فالاستشراق جوهرياً كان مذهباً سياسياً مورس إدارياً على الشرق, لأن الشرق كان أضعف من الغرب الَّذي ساوى بين اختلاف الشرق وبين ضعفه[٤]. وقد أوضح إدوارد سعيد أن الشرق قد غدا موضوعاً لتبادل النظريات المتعددة التي قامت باستعمال الشرق وسيلة للإيضاح, ويسوق على ذلك أمثلة منها: استخدام المستشرق كاردينال نيومن للإسلام الشرقي أساساً

---

١ – هشام الحديدي, **الإرهاب**, القاهرة , الدار المصرية اللبنانية, ١٩٩٩, ص٥١.

٢– خالد الاصور , "**صورة الإسلام في الإعلام الغربي**" , مجلة السياسة الدولية , العدد ١٤٧ , يناير, ٢٠٠٢ ,ص١٥٣.

٣ – سهيل عروس ," **مأزق الليبرالية– نهاية التاريخ نموذجاً**", مرجع سابق , ص١٠٧.

٤ – إدوارد سعيد ," **الاستشراق**", مرجع سابق, ص ٤٢ .

لمحاضرات ألقاها عام ١٨٥٣ لتسويغ التدخل البريطاني في حرب القرم. كما وجد المستشرق(كوفييه) الشرق مفيداً لعمله "مملكة للحيوانات". وإلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المتنوعة [١].

إن الغرب لم يميز في استعماره وعدائه للشرق بين المسلمين والمسيحيين فهو يعد كل من تمسّك بلغة الشرق وتاريخه وتقاليده الأصيلة عدواً له أيّاً كانت نحلته ومذهبه. كما أنه لا يفرق في العداء بين نظام جماعي أو وطني أو نظام تسلطي أو حتى نظام ينهج الطريقة الغربية لكنه مستقل عنها لأن هذا العداء وهذا الصراع في نظره حضاري أزلي, وبالتالي فهو يعتبر أي نظام – اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي لا يؤمن له السيطرة والهيمنة المباشرة عليه – متعارضاً مع نظرته الفلسفية الأساسية إلى الحياة إذ يشكل خطراً على أمنه وسلامته ومصالحه وكيانه وعلاقاته الدولية .

وعندما قام هانتنغتون بتفحص أسباب الصراع بين الغرب وبين الحضارة الإسلامية على وجه التخصيص, ومعها الحضارة الصينية وجد أنها تتجلّى في نقاط عدَّة وكان أهمها أن المجتمعات الإسلامية والكونفوشيوسية ترى الغرب عدوّاً لها وتعتبر أنَّ الثقافة الغربية ثقافة مادية فاسدة متفسخة ولذلك فإن لديهما سبباً للتعاون معاً ضدها ويتوصل هانتنغتون إلى أن كل عملية تخفيض للإنفاق العسكري في الغرب سيقابلها زيادة في الإنفاق العسكري وتطويرالقوات لدى الصين والدول الإسلامية في محاولة منهما للتوازن العسكري مع الغرب. وبالتالي فإن هناك تزايداً في القلق الغربي حيال الخطر الإسلامي على وجه التحديد والمتمثل في التطرف [٢].

إن هذه الروح الاستعمارية الغربية تبدو جليّة بكل معانيها ومراميها المستمدة من الماضي السحيق في أقوال كبار الساسة وقادة الجيوش الحليفة عندما احتُلت الأراضي العربية في المشرق أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها. فقد أعلن رئيس وزراء بريطانيا (لويد جورج) أنَّ فلسطين قد عادت إلى الغرب وأنه لن يسمح أبداً لتلك اليد التي سيطرت على فلسطين وأبعدتها عن الغرب أن تعود للسيطرة عليها مرة أخرى. وقد أشاد(الجنرال اللنبي) بذكرى الحروب الصليبية عند دخوله القدس, وصاح الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين عند احتلال دمشق في تموز عام ١٩٢٠: " ها قد عدنا يا صلاح الدين " وقد حدد الجنرال غورو سياسة الغرب الجديدة في الشرق بتصريح أدلى به للمجلس الإداري لإدارة شؤون لبنان الكبير قائلاً: " على فرنسا أن تحمي الشرق من خطر الدعوات التي تهدف إلى بعث القومية العربية أو التجمع الإسلامي ..." وإن الغرب ليخلّ برسالته في حماية مصالحه في آسيا وإفريقيا إذا لم يفرض لنفسه السيطرة على الشرق, وما لم يَحُلْ دون تضامن مصر وسوريا

١- إدوارد سعيد, "**الاستشراق**", مرجع سابق , ص١٧٠ .

١- صاموئيل هانتنغتون , "**صدام الحضارات ..إعادة صنع النظام العالمي** " , مرجع سابق , ص٢٩٥ .

وفلسطين ولبنان والعراق والجزيرة العربية وتركيا. فإن هذا التضامن لو حدث لأثارت الدعوة بـين المسـلمين جهاداً وكفاحاً يهددان إمبراطورية الغرب في إفريقيا وآسيا [١] .

إن الغرب إذ يقاوم القومية العربية بمقوماتها الأساسية وبمضمونها التاريخي والحضاري وفي إطارها الجغرافـي فلأنه لا يعتبر التجمع الإسلامي يشكل ذلك الخطر الكبير إلاَّ إذا انبثق من المحيط العربي عينه, وبالتـالي فـإن تغريب العالم أي دفعه بكل الوسائل لكي يصبح على شاكلة الغرب من خلال فرض الذات على الآخـر سـوف يهدف إلى تدمير كل هوية أو خصوصية مجتمعية ثقافية يمكن أن تؤثر على مبدأ العالمية نفسها وتـؤثر بالتـالي على سياسة أصحاب هذه العالمية وينسف بامتيازاتها ومصالحها .

١ – أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص ٥٣

المطلب الثالث: دافع مادي اقتصادي.

إن أشد ما يرتبط به التمييز العنصري هو الاستغلال الاقتصادي, لقد كان من الدوافع الرئيسية للحروب الصليبية هي السيطرة الاقتصادية, فوصايا لويس التاسع كانت قد دعت الغرب أن يسلب العرب والمسلمين ما يمتلكونه من سلطان وأموال آنذاك, فحروب الغرب على الشرق لا تعدو أن تكون ممارسة حق الدفاع المشروع لأنَّ ما وصل إلى أيدي هؤلاء العرب والمسلمين إنما جاءهم بطريق الاغتصاب غير المشروع[١]. وما هذا الادعاء سوى تسويغ اختلقه الغرب لتلك الحرب كي يبسط سيطرته ونهبه لثروات البلدان العربية والإسلامية.

و هذا الاتّهام الموجَّه لدول الشرق قد استمرَّ طويلاً, وعاد الحديث عنه بقوَّةٍ بعد قرونٍ عدَّة من انتهاء الحروب الصليبية ومن وصايا لويس التاسع, إذ اعتبر الغربيون أن محاربتهم للشرق ما هي إلاَّ استكمال للرسالة المقدسة التي تلقوها عن أسلافهم الصليبيين.

وهكذا فإن الغرب الَّذي كان يرى دائماً أنَّ سيطرته على الخارج وحدها تضمن ازدهاره وتقدمه ووحدته لم يتردد في اللجوء إلى المسيحية للحفاظ على الثروة والسيطرة. وهذه العلاقة تتجلّى بوضوح في اعتناق روما للمسيحية وكذلك قيادة الكنيسة الكاثوليكية للصراع ضد الإسلام, وهذان الأمران لم يعكسا تعاليم المسيحية ورسالتها للعالم فقد حافظت روما على نهبها للشرق واستعباد أهله رغم إدانة الديانة المسيحية لهذه الممارسة [٢]. كما أن الحركة الصليبية, من ناحية أخرى, كانت محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الَّذين خضعوا للنظام الإقطاعي[٣], حيث كان الفرسان توّاقين إلى توسيع سلطانهم وأملاكهم كما أنَّ البرجوازية الناشئة رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط والعالم وبادرت إلى أراضي المشرق الخصبة التي يشير إليها الكتاب المقدس بقوله: (تدرُّ لبناً وعسلاً) [٤].

وعندما انتصر الغرب في حروبه الصليبية سرعان ما أظهر أنه قد تم استغلال المسيحية كدين لتوفير غطاء أيديولوجي لصراع تكمن أسبابه وغاياته في البحث عن الثروة والمادة أكثر بكثير من الحاجة لتأمين طرق الحج

---

١ - أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص٣٩.

٢- علي الشامي , " **الحضارة والنظام العالمي, أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**",مرجع سابق , ص ٢٨٦.

٣- قاسم عبده قاسم," **ما هيَّة الحروب الصليبية(الأيديولوجيا – الدوافع – النتائج)**", الكويت, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, سلسلة عالم المعرفة, أيار, ١٩٩٠, ص٥٥.

٤- سيد علي الحريري, " **الحروب الصليبية: أسبابها– نتائجها – حملاتها**", بيروت, مؤسسة دار الكتاب الحديث, ١٩٨٨, ص٣٢.

إلى الأماكن المقدسة المسيحية, ذلك أن الصليبيين وقبل أن يرتكبوا مجزرة القدس عام ١٠٩٩ كانوا قد ارتكبـوا مجازرأفظع وهم في طريقهم إليها وقتلوا الآلاف ونهبوا مئات القـرى والمدن المسيحية قبـل أن يواجهـوا أي مسلم[١].

ومع ازدهار النمط المادي الاستهلاكي وظهور التراكم وأزمة تصريف الإنتاج بدأ الإيمـان المسـيحي يتحـول بطريقة مذهلة إلى حافز روحي لتحقيق زيادة في الرأسمالية وإشباع الحاجات المادية, ونشأ بالتـالي مبدأ الإيمان من أجل المادة وأنَّ العمل نفسه من الواجبات الدينية, وذلك في حركة الإصلاح الديني التي بدأت على يد مـارتن لوثر كينغ منذ عام ١٥١٣.

هذه الأيديولوجيا تمتد في تاريخ سياسي وعرقي وتوسعي, وترتدي ثوباً مسيحياً, ومن ثم تظهر حضارة الغـرب في العالم مادية وعلمية وتقنية مسيحية مُغَلِّفةً ذاتها بتفوّق عرقي وجغرافي مدعوم بتقدم علمي وتقني ومـؤد لـج بالمسيحية, فالغرب يبحث بشكل دائم عن ذاته ويعمل باستمرار من أجلها ولذلك كان في أصـله ماديـاً وكانـت المادة حاجة , ووفق هذا تتماهى عالمية الغرب مع مبدأ القوة, وبالتالي يتم عندئذ تبرير توسل العنف في مغـامرة البحث عن المادة التي أخذت صيغة بحث دائم وطموح لتحويل العالم إلى ملكية غربية, وتجريـد الخـارج مـن ثروته من خلال النهب والسلب والإبادة والتدمير, ولا يصح هذا التجريد إلاَّ علـى قاعـدة أيديولوجيـة تبـرره وتدعمه, بحيث يغدو الخارج ضعيفاً أو مرتداً أو متخلفاً.

وبدأت الامتيازات الأجنبية الغربية عام ١٥٣٥ في عهد السلطان سليمان القانوني علـى شـكل معاهـدة بـين السلطان وملك فرنسا وتبعتها بقية الدول الأوربية للحصول على الامتيازات في داخل الدولة العثمانية باسم حماية الأقليات في الشرق, مما أتاح الفرصة للغرب للتسلل داخل الدولة العثمانية وانتقاص سيادتها وإضعاف استقلالها. وأخذت الامتيازات تتزايد فزادت معها السيطرة السياسية للغرب على الدولة العثمانية والتسلل إلى قلبها للتـدخل في أخصّ شؤونها, بحيث تمكنت من الاستيلاء على ما تبقى من البلاد العربية تحت حكم الأتراك[٢].

إنَّ الصورة التي روّج لها فلاسفة عصر الأنوار[٣] في مقولات نشر الحضارة والمدنية الغربيـة مـا لبثـت أن تكشفت عن مشاريع أبعد بكثير فهذا فولتاي أحد أبرز المنادين بتمدين الشرق عام ١٧٨٨ طالب باحتلال مصـر ولكن الدوافع التي يوردها تتجاهل بشكل كلـي تنظيره الفلسفي وهذه الدوافع جسّدها, بقوله : " إنَّ مصـر مـن

١ – علي الشامي," **الحضارة والنظام العالمي, أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**", مرجع سابق, ص٢٨٦.

٢ – أمين النفوري ، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق, ص ٤١ .

٣ – بدأ عصر التنوير في أوربا في القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر حيث حلّت أيديولوجيا ثورية قوامها العقل والتقدم وتنامت مع الوقت الفكرة القائلة: إنه لا يمكن للشرق أن يخرج من تقوقعه إلا بالاندماج بتاريخ الغرب.

أكثر أراضي المعمورة خصباً وسهولة للزراعة .. كما أن مساحتها الشاسعة ومحاصيلها تجمع ما بين منتوجات أوربا وآسيا, هذا عدا عن كونها الأقرب إلى فرنسا فخلال عشرة أيام تصل مراكبنا الحربية من طولون إلى الإسكندرية لتواجه بلاداً تنقصها الحماية الكافية ويسهل احتلالها ... وعن طريق مصر نسيطر على طريق الهند ونستقطب تجارة البحر الأحمر ..... كما يمكننا استقطاب خيرات إفريقيا كالتبر والعاج والسكاكر والعبيد, وبذلك تصبح بلادنا مستودع أوربا والعالم بأسره..." [1], وقد وجدت هذه النصائح آذاناً صاغية, فلم يتورع نابليون من اللجوء إلى مغامرة عسكرية عنوانها الظاهر نشر القيم الكونية للحضارة الغربية ولكن جوهرها حَمَل النهب والسيطرة والدمار فكانت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨. وهكذا جاء نابليون مدعياً بأنه مرسل من قبل العناية الإلهية كي يخلص العرب من البرابرة ويصحح مسار الدين الإسلامي الَّذي شوهه الجهل والمسيئون.

واليوم لا ترى الولايات المتحدة في النزاع بين العرب واليهود سوى أنَّ المنطقة بالغة الأهمية لتوفير السيطرة الإستراتيجية والاقتصادية, وأن الشرق مشكلة بالغة الأهمية من أجل المحافظة على حرية وأمن وازدهار إسرائيل مع استمرار السيطرة على موارد البترول العربي لتحسين أحوال ميزان المدفوعات الأمريكي وكل هذا الاهتمام والعناية من جانب أمريكا بالنسبة لإسرائيل ومدّها بالدعم العسكري والسياسي والمالي منذ إقامتها إنما يتأتّى من الخدمات الكبيرة التي تسديها الصهيونية لها في المنطقة العربية وخصوصاً في عمليات التحريض والاضطراب التي تقوم بها في الدول الشرقية, ليصير السؤال هنا: لماذا يمتلك بشرٌ كهؤلاء العرب حقَّ إبقاء العالم المتطور الحر الديمقراطي الأخلاقي مهدداً.؟ فيبرز الاقتراح بأن تقوم قوات الجيش الأمريكي بغزو حقول النفط العربية, وهنا يتجلى قول إدوارد سعيد: "ثمة تضمينات خطيرة لنظام الاختلاقات العقائدية الَّذي ما فتئتُ أسمِّيه الاستشراق, وذلك أنَّ الولايات المتحدة اليوم ذات استثمارات ضخمة في الشرق الأوسط أضخم مما لها في أي مكان آخر على وجه الأرض, وخبراء الشرق الأوسط الَّذين يقدِّمون المشورة لصانعي السياسة مفعمون بالاستشراق عن بكرة أبيهم" [2].

إنَّ هذه الصورة النمطية للشرقي القاصر عن التقدم والعصيّ على التنوير, وهذا التوجه الغربي إزاء الشرق انكشف بشكل سافر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع انتصار الثورة الصناعية وما استلزمته من تأمين أسواق جديدة ومواد أولية والسيطرة على مصادر الطاقة. وهذا لم يعد خفيّاً فالصراع الإنكليزي – الفرنسي الَّذي ظهر بشكل جليٍّ بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩ كان هدفه السيطرة على المنطقة لأهميتها السياسية والاقتصادية والإستراتيجية, وليس من أجل الأخذ بيد شعوبها نحو التحضير, وهكذا يبدو التمييز العنصري بأنه في جوهره ظاهرة طبقية اتخذت من نظرية تفوّق الرجل الأبيض ذريعة لتبرير الاستغلال الاقتصادي.

---

١ – جان جبور," **بين التاريخ والسياسة, من الذي يصنع الثورة**", مرجع سابق, ص٩ .

٢ – إدوارد سعيد," **الاستشراق**" , مرجع سابق ,ص٢١٧.

المبحث الثاني: أساليب الغرب العنصرية تجاه الشرق.

المطلب الأول: الدور الفكري والثقافي الغربي.

ما بين العصور الوسطى والقرن الثامن عشر استقى مؤلفون غربيون رئيسيون شخصيات ومعالم شرقية من أجل إعادة إنتاجهم بعكس صفاتهم, فالفينيقيون وكليوباترا وعدن وطروادة وسدوم وعاموره وعشتار وآيزيس وأوزيريس ومملكة سبأ وبابل ونينوى وبرستوجون وماهومت وأرسطو...وكثيرون غيرهم قد تم وضعهم بصور قبيحة كعفاريت, وشياطين، ولذّات, و شهوات [1]. وهذا الإنشاء التمثيلي التخيُّلي الذي يقوم به أولئك الغربيون تجاه الشرقيين لا يزال مستمراً, وقد أكسبوه الشرعية الدائمة .

ويستخدم المؤلفون العديد من الأساليب البلاغية للتخفيف أو التشديد من دلالة الفعل, ودائماً يتم تصوير العرب على أنهم دونيون غير فاعلين، مقابل تفوّق الغربي وفعاليته، فهنالك مثلاً في المقتطفات الروائية الخيالية المأخوذة عن الأدب الفرنسي يُلاحَظ أن العرب لا يتحركون، وجامدون وبطيئون في العمل وحالمون, يهربون أمام المخاطر, ويقبلون الاتهامات الظالمة دون أن يدافعوا عن أنفسهم، قدريّون يؤمنون بالنصيب، وفي أحسن الأحوال يحلمون بالهرب إلى عالم خيالي ينتمي إلى الماضي. أمَّا الفرنسيون الأعلى مقاماً فيتّصفون بالصفات العكسية تماماً فتسود الفاعلية سلوكهم، ويتمتعون بالقدرة على الحركة والسيطرة والشجاعة والواقعية......., ودائماً ما تظهر الشخصيات العربية في أدوار كخدم وزعماء قبائل خاضعة وجزّارين ورعاة غنم وصيادين وعمال نظافة. بينما الشخصية الفرنسية تظهر بدور السيد، والرئيس، والضابط وغير ذلك من مستويات عليا. كما يتم تقديم هذه الروايات في كتب القراءة لمختلف المراحل الدراسية [2] .

وفي هذا الجانب قام الباحث "إياد قزّاز" أستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا بتحليل ستة وثلاثين كتاباً مدرسياً للعلوم الاجتماعية ووجد أنَّ: هذه الكتب تقدم صورة مشوهة للعقيدة الإسلامية، وتكرِّس صورة العربي كتاجر رقيق، كما أنها تقلِّل من الإسهامات العربية والإسلامية في الحضارة الغربية، وتُفرط في تأكيد طبيعة الإسلام المولعة بالقتال، وتكرِّس صورة المرأة كأداة متخلِّفة محجَّبة قابعة في الحريم، وتصوّر العرب كشعب بدوي يعيش في جزر واسعة، ويستخدم الجِمال كوسيلة وحيدة للمواصلات, إضافة إلى أنَّ العرب شعب مغرم بالغزو والنهب والسلب, فضلاً عن تأكيدها على أن فلسطين أرض خالية من السكان, والعدد القليل من الناس الَّذين يعيشون فيها كسالى وبدائيون على العكس من الصهاينة الَّذين هم شعب منتج ودؤوب ومجتهد [3].

١- إدوارد سعيد, " **الاستشراق**", مرجع سابق, ص٩٢

٢- مارلين نصر," **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**", مجلة المستقبل العربي, العدد ١٩١, ك٢, ١٩٩٥, ص٣١.

٣ - أديب خضور," **صورة العرب في الإعلام الغربي**", مرجع سابق, ص٢٧.

فضلاً عن ذلك تستخدم المؤسسات الإعلامية الغربية الأخرى كافة الوسائل كي تبرهن على الترابط بين الإسلام والتخلف, فتعمد برامج التلفزة الغربية إلى تقديم العرب على أنهم أثرياء كبار يشترون أمريكا، ويسببون ارتفاع الأسعار وخاصَّة في مجال العقارات, ومن الصعب أن ترى طبيباً أو مهندساً عربياً على الشاشة، فالعرب برابرة غير متحضرين وتجار رقيق ومتخلفون, وترى العرب على الشاشة دائماً مثيري حروب أو حكَّاماً صحراويين طامعين أو مخططين للإرهاب[١].

كما وتكرّس برامج الأطفال التلفزيونية الغربية صورة العربي العدواني والمتخلف، فلا يقدِّم التلفزيون الأمريكي العرب كأفراد لهم سلبياتهم, وكذلك إيجابياتهم إنما يقدِّمهم كصور نمطية مقولبة بإحكام من خلال مادة جذابة وفن تلفزيوني مثير, الأمر الَّذي يجعل هذه الصور تترسَّخ في أذهان الأطفال وتصبح منطلقاً لأفكارهم وقيمهم وسلوكهم. وتبلغ هذه الإساءات حد الإهانات العلنية بعد أحداث / ١١ / أيلول بكافة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة, ولم تصدر بتلك الطريقة العنيفة من قبل.من جملة تلك الإساءات تعرُّض الزعيم اليميني المتشدد "بات روبرتسون" لشخصية رسول الله محمد ﷺ, حيث قال: "إن ذلك الرجل كان مجرد متطرِّف ذي عينين متوحشتين, لقد كان سارقاً وقاطع طريق... وتقول إنَّ هؤلاء الإرهابيين يحرِّفون الإسلام ؟! إنهم يطبقون ما في الإسلام", ويتابع: "إن الإسلام هو خدعة هائلة". كما قال عن القرآن:" إنه سرقة دقيقة من الشريعة اليهودية..أنا أعني أن هذا الرجل محمداً كان قاتلاً, وأنَّ التفكير في أن هذا الإسلام دين سلام هو احتيالٌ كبير".

وفي أكثر من مناسبة يكرر إساءته للمسلمين بوصفهم أسوأ من النازيين. وهناك الكثير من السياسيين الأمريكيين على شاكلة هذا اليميني المتطرف مثل زعيم الأغلبية في مجلس النواب الأمريكي النائب الجمهوري ريتشارد آرمي ممثل ولاية تكساس الَّذي نادى بحلِّ الصراع في الشرق الأوسط بطرد الفلسطينيين من فلسطين. وبمقابل هذه الأمثلة والشخصيات المسيئة للمسلمين والإسلام هناك بعض أعضاء الكونغرس المساندون لقضايا المسلمين والعرب في أمريكا والَّذين تعرضوا لضغوط سياسية وإعلامية كبيرة جداً, فمثلاً منها ما أدى إلى إسقاط النائبة سسينثيا ماكيني ممثلة الدائرة الرابعة بولاية جورجيا, وكذلك النائب آرييل هلليارد ممثل الدائرة السابعة بولاية ألباما. وقد أدى سقوطهما إلى زيادة شعورالمسلمين في أمريكا بالضغوط السياسية التي يتعرضون لها بعد أحداث / ١١ / أيلول [٢].

١- أديب خضور," **صورة العرب في الإعلام الغربي**", مرجع سابق, ص٣٥-٣٦.

٢- فهمي هويدي," **تقرير عن الحالة الإسلامية في أمريكا**", المجلة, العدد١٢٠٠, ٢٠٠٣/٢/١٥,ص٤٣-٤٤.

كما أن الإسرائيليين لم يغفروا لأي صحافي إنصافه للعرب أو حتى مجرد أمانته في عرض وقائع ما يجري في الأرض المحتلة ومثال ذلك التهديدات بالقتل التي تعرض لها الكاتبان البريطانيان "روبرت فيسك" و"باتريك سيل" لمجرد أنهما يتمتعان بالموضوعية والنزاهة في تناولهما قضايا المنطقة [١].

وبالمقابل تتحول جائزة نوبل إلى سلاح بيد الغرب ضد الإسلام فتهب نفسها إلى الكاتب الهندي (نايبول) للعام ٢٠٠٢ لا لشيء سوى أنَّه كتب ثلاثة كتب عن رحلات قام بها إلى بلدانٍ إسلامية, ووصف هذه البلدان وصفاً بالغ السوء، وذكرت مؤسسة نوبل أنها أعطته جائزتها لما لمسته لديه من دقَّة في وصفه للإسلام. وكانت نصيحتها بالتالي للمسلمين أن يتأنّوا وهم يقرؤون ما قاله (نايبول) عنهم قبل أن يحكموا على ما كتبه, وعليهم أن ينتفعوا منه لكي يُغيِّروا ما هم عليه, فمشكلتهم هي معتقداتهم وقناعاتهم وشرائعهم[٢]. بعد هذا أي منحى سيتبنّاه كتّاب العالم وأدباؤه وصحفيّوه؟ بالطبع سيتهافتون متناولين الإسلام والعرب وأجدرهم هو من يضعهم موضع الإساءة الأكثر شدة.

والأنكى من كل هذا أن تقوم وسائل الإعلام الغربية باختلاق الأكاذيب والافتراءات غير مبالية حتى بتقاليد ومبادئ العمل الصحافي. فما يثير الانتباه والعجب ويكرس صورة المسلمين البشعة في أذهان الغرب هو ما جرى في صحيفة واشنطن تايمز أن مراسلاً عربياً اسمه " سيد أنور " يرسل من داخل فلسطين تقارير حول الأوضاع فيها مصوراً الفلسطينيين في أبشع صور الإرهاب والإجرام, وحين اكتشف بعض الناشطين في الولايات المتحدة أن هذا الاسم العربي ما هو إلاّ مجرد اسم منتحل من قبل الصحافي بول مارتن والَّذي يراسل من مقره في لندن الصحيفة الأمريكية تكتَّمت هذه الصحيفة وحاولت مداراة الموضوع وسرَّبت المعلومة إلى صحيفة أخرى كي تروي القصَّة باعتبارها من نماذج الاحتياطات والضرورات التي يضطر الصحافي للجوء إليها كي يؤمِّن نفسه من تهديدات الإرهابيين[٣].

إن صورة العربي التي عممها الغرب في زي بدوي يقود قافلة جمال في الصحراء أو يمسك بخرطوم محطة وقود أو على تصويره متهتكاً فاسقاً وما إلى هنالك، أُضيفَ إليها الآن ومنذ فترة ليست بالبعيدة نسبياً مقولة جديدة تصف كل عربي بأن في داخله إرهابياً كامناً لا يتوانى عن تفجير حقده على منجزات الحضارة الغربية ما إن تسنح له الفرصة, ومن الطبيعي بالتالي أن تتلقف الدعاية الصهيونية هذه التوجهات وتغذيها لتبرر إسرائيل كجزء

١- فهمي هويدي," **الإعلام الأمريكي متلبِّساً بالجرم المشهود**" ,المجلة,العدد ١١٩٨, ٢٠٠٣/٢/١ , ص٤٥.

٢-جهاد فاضل, "**جائزة نوبل للآداب وإلى أجلٍ غير مسمى– الأفضلية للمعادين للإسلام أو للمنشقين عنه**", الحوادث, العدد ٢٣٩٦, ٢٠٠٢/١٠/٤, ص٦٠.

٣ – فهمي هويدي," **الإعلام الأمريكي متلبِّساً بالجرم المشهود** ", مرجع سابق , ص ٤٥.

من التاريخ الغربي وهي محاطة بأشرار لا يؤمنون بقيم الغرب الإنسانية. فإذا كانت الدعاية الصهيونية مـــاهرة في اقتناص الفرص فهل يعقل أن تضيع مناسبة بضخامة أحداث / ١١ / أيلول, حيث كانت صورة الصهيونية قد بدأت تهتز منذ بدء انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٢ والتي حملت إلى العالم صور قتل الأطفال برصـــاص الجـــيش الإسرائيلي إلاَّ أنها وبسرعة قياسية قفزت مجدداً لتلميع صورتها عبر وسائل الإعلام فرصدت مئة مليـــون دولار لشركات الدعاية المختلفة(١).

وهكذا فجأة بدلت صورة الفلسطيني المعتدى عليه وأظهرته إرهابياً, وتزامنت هذه الحملة المبرمجـــة مـــع كـــلام سياسي يزن الأمور بمقياس أخلاقي مبسَّط يتمحور حول الخير والشر, فإذا بالمواطن العادي في الغـــرب ينظـــر إلى أي حدث عنفي يطال أهدافاً أمريكية أو أوربية أو إسرائيلية كنوع من الهجوم الثقافي على قيمه وعلى أسلوبه في الحياة من أناس كارهين رافضين لكل ما هو حديث, هذا ما أكدته صحيفة يـــديعوت أحرونـــوت الإســـرائيلية عندما أشارت إلى أن إسرائيل يمكنها تشويه صورة العرب والمسلمين في العالم مقابـــل قـــدرتها علـــى تحســـين صورتها وذلك بما تمتلكه مـــن أسلحة إعلامية ومادية كبيرة وفعّالة، ومن ثم قامت بتقديم الحل للحد من انتشـــار (الإسلاموفوبيا) أي الخوف من الإسلام وذلك بأن ينصاع العرب والمسلمون بشكل تام لإسرائيل لتقوم من جانبها بتحسين صورتهم أمام الغرب ولتثبِّت الطمأنينة داخل قلوب شعوب العالم تجاه هؤلاء العرب والمسلمين. إن مـــا تهدف إليه إسرائيل من خلال إعادة رسم خريطة الشرق منذ إدخاله في نفق إستراتيجية (جيوبوليتيكية الفوضـــى) هو ألاَّ يظل بقاء الدولة اليهودية الدينية التي أعلن عنها شارون فـــي ١٤/ حزيـــران/ ٢٠٠٣ مرهونـــاً بقوَّتهـــا العسكرية فقط، أو بالوجودية الصهيونية التي عبّر عنها بيغن بقوله: "أنا أحارب إذن أنا موجـــود", وبقولـــه: "إن عنصر العنف والقوة جزء لصيق بالحركة الصهيونية, والعدوان مسألة جوهرية وليست عارضة"(٢).

وهكذا تمت تغطية المصالح الغربية العسكرية والسياسية والاقتصادية بتبريرات ثقافية لتكسب بالتالي شرعيتها.

إن وسائل الإعلام المرئية بما تقدمه من صورة وصوت وبما تمتلكه من قدرة في نقلهما بشكل مباشر أثناء وقوع الحدث تؤثر أشد التأثير في الحالة النفسية للمشاهد, وهكذا فقد أدركت الولايات المتحدة قدرة التلفزة علـــى إثـــارة

١- جان جبور , " **بين التاريخ والسياسة, من الذي يصنع الثورة**", مرجع سابق , ص٩.

٢- مصطفى أنطاكي ," **في الأصولية الصهيونية** " , مجلة جيش الشعب ,العدد ١٩٦١ , آب ,٢٠٠٦ ,ص ٢٨.

الحمية في نفوس الجماهير. وهذا ما دفعها بادئ ذي بدء بضرب وزارة الإعلام وإيقاف البث التلفزيوني العراقي منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها العراق وقبل أن تبدأ بأي عمل عسكري, وبهذا تكون قد سعت لتحقيق هدفين,

الأول: هبوط عزيمة الشعب العراقي، والتعتيم عليه إعلامياً.

الثاني: إمكانية نشر أية معلومة خاطئة إن لزم الأمر عبر وسائل إعلامها, أو إخفاء أية معلومات لا تريد نشرها, وذلك من خلال عدم وجود دليل قوي يدحض ادعاءاتها.

المطلب الثاني: المؤتمرات والمنظمات الغربية.

منذ القرن التاسع عشر والولايات المتحدة كانت معنيّة بالشرق بطرق مهدت لاهتمامها اللاحق به هذا الاهتمام الَّذي غدا إمبريالياً علناً فيما بعد .

كانت البداية مع تأسيس الجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢التي كان من بين أهدافها رعاية المعرفة في اللغات الآسيوية والأفريقية وفي كل ما يخص الشرق، وخلق تذوق للدراسات الشرقية في هذه البلاد، ونشر النصوص والترجمات والمراسلات بين الباحثين.

وقد أسهمت هذه المؤسسات التبشيرية المبكرة (المطابع – المدارس – الجامعات – المشافي...) في تحسين أمور المنطقة لكنها سرعان ما كشفت عن وجهها الإمبريالي الَّذي لم يختلف عن وجه فرنسا وبريطانيا في الشرق, وتجلّى ذلك منذ الحرب العالمية الأولى حين أخذت أمريكا تهتم بصورة رئيسية بالصهيونية واستعمار فلسطين ، والَّذي تبلور مع صدور وعد بلفور[١].

ومنذ أوائل القرن العشرين وتحديداً عام /١٩٠٥/ عُقد مؤتمر أوربي كبير في لندن استمر حتى عام ١٩٠٧ , ودعي بمؤتمر كامبل بنرمان نسبة إلى وزير الخارجية البريطاني آنذاك وقد ضمَّ نخبة من المفكرين والسياسيين الغربيين برئاسة وزير خارجية إنكلترا الَّذي قال في خطاب الافتتاح: "إن الحضارة الأوربية مهددة بالانحلال والفناء, والواجب يقضي علينا أن نبحث في هذا المؤتمر عن وسيلة فعّالة تحول دون انهيار تلك الحضارة ". وقد توصَّل المؤتمر بعد دراسات كثيرة إلى خطة تقضي بالعمل المشترك على منع أي اتحاد أو اتفاق بين دول المشرق والمغرب العربي لأنها تشكل الخطر الوحيد على مستقبل أوربا, وأن الوسيلة لذلك تكمن في إنشاء قومية أجنبية غريبة عن المنطقة ومعادية للسكان شرقي قناة السويس, وقد وضع خبراء الدول الكبرى من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا تقريراً حينذاك جاء فيه:(إن الخطر على الغرب يكمن في البحر المتوسط صلة الوصل بين الشرق والغرب، وفي حوضه مهد الديانات والحضارات. ويسكن في هذه المنطقة شعب واحد تتوافر له من وحدة تاريخه ولغته وآماله كل مقومات التجمع والترابط. وما دامت قد تكاملت لهذا الشعب كل تلك المقومات علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله للتحرر فلا بد أن تحل ّالضربة القاضية حتماً بالإمبراطورية الغربية. ولذا فعلى الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على إبقاء وضع هذه المنطقة مجزءاً متخلفاً وعلى إبقاء شعوبها على ما هي من تفكك وجهل، والعمل على محاربة اتحادهم وارتباطهم

١- إدوارد سعيد, " **الاستشراق**" ,مرجع سابق , ص٢٩٣.

بأي نوع من الارتباط الفكري أو الروحي أو التاريخي.وللتغلب على الخطر تقتضي ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي وذلك بإقامة حاجز بشري غريب في منطقة الجسر البري الَّذي يربط آسيا وأفريقيا ويربطهما معاً بالبحر المتوسط, بحيث تتشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة, ومصالحها هي التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسبل المقترحة. هذه مهمتكم أيها السادة, وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا) [١].

وهكذا اصطنع الغرب كل المبررات السياسية لتدخله في شؤون المشرق والمغرب العربيين ، وطور أساليبه من عقيدة دينية صلبة إلى حملات عسكرية وغزو فكري وحروب نفسية, وصاغها في النهاية بنظرية سياسية واقتصادية واجتماعية, وفلسفها بكل ما لديه من فكر وثقافة جاعلاً مصطلح (الاستعمار) عقيدة وطنية لأوربا محاولاً بثها في أذهان الشعوب الأخرى على أنها حق طبيعي لشعوب أوربا الراقية المتفوّقة في نشر رسالة الحضارة بين الشعوب المتخلفة لإنقاذها من ظلام القرون الوسطى. وبالتالي فإن مبادئ التمدين الجديد تحمل إلى البشرية قيم الاستعمار الأخلاقية ومثله الإنسانية التي يجدر بالأقوى أن يطبقها على الأضعف.

هذا ما اعتمده الاستعمار الغربي مدركاً أهمية إضعاف الوعي الوطني وقتل الشعور القومي ولا أدل على خطورة هذا المخطط من المشاريع التي طبقها الماريشال (ليوتي) الفرنسي في المغرب العربي إذ قال: "إن على الغرب أن يجعل العربي المراكشي أجنبياً عن العربي الجزائري, وأجنبياً عن العربي التونسي والليبي والمصري والسوري والعراقي", منادياً بخلق جنسيات جديدة بين العرب تتميز بالخلاف بين المذاهب الإسلامية في كل بلد عربي, ودعا إلى وجوب إبراز هذه المذاهب وتطويرها بحيث يتحوّل العرب من القومية العربية أو الرابطة الإسلامية إلى طوائف إسلامية متناحرة [٢].

أمّا خلال الحرب العالمية الثانية، وبعدها فقد أعدَّت الولايات المتحدة العُدَّة من أجل دورها الإمبريالي الجديد في المنطقة ومن أجل تحقيق ذلك الدور وُلِد الجهاز الهائل للبحث في شؤون الشرق الأوسط وهو معهد الشرق الأوسط الَّذي أنشئ في واشنطن عام ١٩٤٦، والَّذي اعتبر ملحقاً معاصراً للجمعية الشرقية الأمريكية. ومن مثل هذه المنظمات نمت رابطة دراسات الشرق الأوسط، ونما الدعم القوي من قبل مؤسسة فورد، وغيرها ونمت البرامج الاتحادية المتنوعة، ومشاريع البحث التي نفذتها كيانات مثل وزارة الدفاع، وهيئة الراند ومعهد هدسون والجهود الاستشارية والضغوط الرواقية للمصارف وشركات النفط والشركات متعددة القوميات وغيرها.

١- غازي حسين , " **الاستعمار وتأسيس الدولة الصهيونية** " , مجلة الطلائع , العدد ٦٢٥ ,١٩٨٣, ص٨.

٢- أمين النفوري, " **استراتيجية الحرب ضد إسرائيل, والعمل العربي الموحد**", مرجع سابق , ص٤٨-٥٠.

وفي صفحة نمطية من صفحات المستشرقين عن صورة الإسلام يُلاحظ في عمل (غوستاف فون غروبناوم) وسلطته المؤسساتية حضوراً باهراً للغة الإنشاء الثقافي من خلال تركيزه على الإسلام بوصفه ثقافة قدسية (دينية), ولا يجد صعوبة في الافتراض بداهة أنَّ الإسلام ظاهرة أحادية وحدانية بخلاف أية ديانة أو حضارة أخرى كما أنه يُظهِر الإسلام (ضد – إنساني) عاجزاً عن التطور ومعرفة الذات والموضوعية إضافة إلى كونه سلطوياً غير علمي عقيماً غير خلاَّق. ويمثِّل(برنارد لويس) حالة شيقة لدراسة العالم الإسلامي لأن مكانته في العالم السياسي للمؤسسة (الانجلو – أمريكية شرق الأوسطية) تمنحه مكانة المستشرق المتفقِّه, وكل ما يكتبه مشبع بسلطة هذا الحقل وكان غرض لويس الدائم هو إظهار الإسلام على أنه عقائدية لا سامية لا دين فقط[1] .

فيما يلي بعضٌ من تحليل روستو مخطط السياسة الأمريكية تجاه الشرق العربي لسنوات طويلة في عهدي كندي وجونسون إذ يقول في تحليله عام ١٩٦٥: "إن الظروف التاريخية تؤكد أنَّ أمريكا جزء مكمل لتاريخ العالم الغربي بفلسفته وعقيدته ونظامه وذلك يجعلها تقف على الطرف النقيض الآخر من تاريخ العالم الشرقي بفلسفته وعقيدته المتمثلة في الدين الإسلامي...لقد تحرر الشرق من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع التحرر من سيطرة الغرب الحضارية, وإن ثورته على الغرب مستمدة من المبادئ والقيم والمفاهيم التي تعلمها من الغرب, حتى أن معرفته بتاريخه وحضارته وتراثه تُعزى إلى المثقَّفين الغربيين...", إلى أن يتوصل إلى نتيجة مفادها: "إزاء هذه المفارقات والمتناقضات والعداء المتأصل تنصح بعض الدوائر الأمريكية باستعمال القمع والعنف وتعتقد أنّ العرب لا يفهمون إلاَّ بمنطق القوة" [2] .

وامتدت سلطة الغرب بشكل معلن ظاهر وبطرق مختلفة لا تقلُّ سوءاً عن الشكل القديم المباشر للاستعمار رغم أفوله. فقد أُعلن في البيان الختامي لحلف الأطلسي في نهاية الاجتماع الذي عقد في بروكسل بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٨، أن الحلف الأطلسي يمكن أن يمد عملياته إلى الدول غير الأعضاء في المعاهدة وذلك بناء على طلب وزير خارجية أمريكا (دين راسك) الَّذي تقدم إلى الدورة بمذهب جديد وهو(عقيدة المظلة الأطلسية) التي تمتد فوق كل بلد غير منضم إلى الحلف, وقامت عندئذ وسائل الإعلام الغربية بفلسفة التدخل الغربي في شرقي المتوسط لأنه حيوي لسلامة وأمن أوربا, فعلى سبيل المثال تقول الجريدة الألمانية كريست أندويلت: "إنَّ الحلف الأطلسي ضروري من أجل ضمان وضع قائم في البحر المتوسط ... ولا توجد إمكانية أخرى خارج الحلف لتقديم مساعدة سياسية وغيرها إلى إسرائيل التي لا يمكنها الاستغناء عن هذه المساعدة وعن دعم العالم الغربي".

١- إدواردسعيد ,"**الاستشراق** ", مرجع سابق , ص٢٩٤ – ٢٩٥ .

٢- أمين النفوري ," **استراتيجية الحرب ضد إسرائيل , والعمل العربي الموحد** ", مرجع سابق , ص٦١ – ٦٢ .

أمَّا جريدة دي تات الألمانية فتعبِّر صراحةً عن موقف الغرب إزاء إسرائيل, قائلة: "إنَّ الحلف الأطلسي بوصفه منظمة يعتبر إسرائيل قوة رادعة في الشرق الأدنى وحاجزاً يحمي الجناح الجنوبي للحلف الأطلسي من موجة القومية العربية التي ترفض الدور القيادي للعالم الغربي في هذه المنطقة من العالم. وإن إسرائيل هي بالنسبة للحلف الأطلسي خادم لهذه المنظمة خارج حدودها، وخادم لمد نفوذها للتوغل إلى أبعد..."[1].

هذه الأمثلة المنتقاة من أمثلة لا يمكن حصرها تقدم عرضاً سريعاً لتاريخ المنظمات والهيئات والمؤتمرات والأحلاف الغربية، وخاصَّة الأمريكية وأساليبها في الإساءة للإسلام والعرب من خلال ما صدّرته الدعامات الأساسية لها, والتي تمثلت بالمستشرقين الَّذين تباينت أساليبهم فمنهم من اتخذ لغة الإنشاء الثقافي وبعضهم كان أكثر التصاقاً بالجانب المتعلق بالسياسة العامة من الاستشراق, وتبنى آخرون التوفيق بين الأسلوبين السابقين, أما الآن وبعد أن بدأ الغرب يفقد البعد العسكري في السيطرة أصبح حريصاً على أن ينظم المنظمات والهيئات التي تحفظ له تفوقه وسيطرته الثقافية وصولاً إلى استغلال خيرات الشعوب، وما منظمة الكومنولث البريطاني إلاَّ مثال عن جهود بريطانية للحفاظ على روابط تربط مستعمراتها السابقة بها عن طريق اللغة والثقافة مما يحقق لها مصالحها. وما منظمة الفرانكفونيّة التي عقدت مؤتمرها للقمة في بيروت تحت شعار حوار الحضارات إلاَّ وسيلة تجمع من خلالها شعوباً متباعدة الثقافات كي تجعل الرابط بينها الثقافة الفرنسية وأساليبها.

إضافة إلى ذلك، ولتكريس كل ما سبق، فإن الدول الإمبريالية الغربية تخص الشعوب العربية بأساليب وطرق مضافة تتناسب مع محاولة إخماد جذوة صراعها مع الصهيونية العالمية، وأهم هذه الأساليب إنشاء المعسكرات والمؤتمرات الشبابية التي تضم عرباً وصهاينة كان أبرزها قمة شباب الشرق الأوسط الَّذي عقد في سويسرا عام ١٩٩٨م, وضمَّ ٧٥ فتى وفتاة جاؤوا من إسرائيل وفلسطين ومصر والأردن والولايات المتحدة، وكانت أبرز النقاط التي أكد عليها هذا المؤتمر هي:

١ – ضرورة تجاوز الماضي ونسيانه .

٢– التفاهم انطلاقاً من أن للطرفين أخطاء في الماضي.

٣ – تغيير البرامج التربوية والتعليمية والإعلامية[2].

إن هذا الإعلان يهدف إلى قلب الصورة تماماً لصالح إسرائيل, متبعة ًالأسلوب السياسي اللطيف واللبق فهي عندما تطالب في بندها الأول بضرورة تجاوز الماضي ونسيانه فكأنها تدعو إلى نسيان كل الجرائم مع أنَّ

١– أمين النفوري ," **إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل , والعمل العربي الموحد** ", مرجع سابق, ص٦٦.

٢– محمد علي حوات, "**العرب والعولمة, شجون الحاضر وغموض المستقبل**", القاهرة, مكتبة مدبولي, ٢٠٠٢, ص١٨٦.

إسرائيل تبني وجودها على دعاوى توراتية كاذبة منذ حوالي ألفي عام، وهي تدعو إلى نبذ العنف بمعنى وقف المقاومة واستمرار العنف الإسرائيلي.

وإنها حين تشير في بندها الثاني إلى التفاهم انطلاقاً من أنَّ للطرفين أخطاء في الماضي ، فإنها بالتالي تخفي ضمناً مساواتها بين القاتل والمقتول .

أمَّا مطالبتها في بندها الثالث بتغيير البرامج التربوية والتعليمية، فإنها تستهدف إخفاء معالم الجريمة في فلسطين والدول العربية المجاورة, وتهدف إلى محو اسم صلاح الدين محرر القدس من الذاكرة, والعمل على إيجاد أشكال من التبادل الثقافي لصالحها كي تخدم مشروعها الاستعماري.

كما يوجد عشرون مركز بحث في واشنطن يبحث في قضايا الشرق الأوسط . هذه المراكز سرعان ما أخذت بالتحليل ودراسة الوضع جراء ما حدث في الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١, وتوصلت إلى ضرورة أن يتم اتخاذ أحد حلين ضد الشرق الأوسط الَّذي أرادت له أن يكون موضع الاتهام جراء ما حصل. أما الحلاَّن:

فأولهما: ضرورة تغيير سياستهم في الشرق الأوسط بما أنَّ السياسة الأولى لم تنفع، وفي هذا تبرير لأن يفعلوا ما يشاؤون ، ويقرروا أية سياسة يرغبون.

وثانيهما: بدلاً من تغيير السياسة الأمريكية يجب تغيير الثقافة السياسية في الشرق الأوسط، لأنَّ هذه الثقافة هي التي أنجبت أسامة بن لادن، وأمثاله .

وأخيراً: يرى الباحث أن كل ما أنتجه العالم من منظمات وهيئات ومؤتمرات وأمثالها تحت عنوان تحقيق وحفظ خير الإنسانية تنهار عاجزة حين يقرر الأقوى فعل ما يريد على حساب الأضعف, وما دام الاحتيال موجوداً والالتفاف على القانون سهلاً إلى حد كبير, إذاً لا فائدة ترجى من هذه المنظمات في العالم المعاصر نتيجة خضوعها لسيطرة الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا, ومثال على ذلك استخدام الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن لحق النقض (الفيتو), والذي يعني إبطال أي قرار في مجلس الأمن إذا اعترضت عليه أية دولة من الدول الخمس الدائمة العضوية (أمريكا, روسيا, بريطانيا, فرنسا, الصين).

إنَّ هذه الفظاعة الإنسانية في القرن الحادي والعشرين, بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، تتويج لأبشع أنواع العنصريات التي سادت العالم, لأن العودة إلى أشد ظلاميات الماضي تعيد نفسها, في حين يظن العالم نفسه آمناً تحت رحمة تلك المنظمات العالمية الإنسانية، وحين يعيد التاريخ نفسه فإنه سيكون أكثر سوداوية مما مضى على حد تعبير (هيجل).

ـ الفصل الرابع: واقع الشرق, ووسائله في مواجهة العنصرية الغربية, (الدول العربية نموذجاً).

- المبحث الأول: المأزق الفكري.
- المبحث الثاني: الواقع السياسي والثقافي.
- المبحث الثالث: الإستراتيجية البديلة وبعض الحلول الممكنة في ظل الظروف الراهنة.

الفصل الرابع: واقع الشرق ووسائله في مواجهة العنصرية الغربية,(الدول العربية نموذجاً).

المبحث الأول : المأزق الفكري.

بدلاً من أن تتنّبه الثقافة العربية لخطر ما يطرق المستقبل من محاولات أمريكية – إسرائيلية لفرض التطبيع الثقافي بعد أن تم عقد الاتفاقات التي أفضت إلى التطبيع السياسي بين إسرائيل وبعض الدول العربية فقد جعلت من السجالات الداخلية حول إشكاليات ومصطلحات ومفردات محطّ أنظارها وشاغلها الأساسي. إن هذه السجالات أدت بدورها إلى اتساع الفجوات وتفاقم الأزمات وجعل الثقافة العربية عاجزة عن الاستجابة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وكان من أبرز تلك السجالات الدعوة إلى الحداثة من جهة والعودة إلى الماضي من جهة أخرى, أي بين (التقليد, والتراث) إن هذه الجدلية اتخذت مداها الواسع عندما فُهمت الحداثة على أساس أنها (التغريب) من قبل القوى السياسية التي ترى في الغرب وقيمه وتقاليده السبب الرئيسي للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه الأمة الإسلامية [1].

كما فُهمت الأصالة على أنها الانغلاق على الذات أو على التراث, والثبات, وعدم التغيير والتطور. إنَّ هذا التناقض والتعارض ما بين مفهومي الحداثة والتراث يجعل الأمة العربية أمام جملة من الوقائع المتعارضة إلى حد المفارقة, حيث تحيا في خصوصيتها حتى البداوة, وبالمقابل فإنها تغرق في عالميتها حتى درجة كبيرة, تستخدم أحدث الأدوات والطُّرُز, ولكنها ترفض أحدث الأفكار والمناهج، تتشبث بالأصول لأبعد حد على صعيد الخطاب والكلام وتخرج عليها بالفعل والممارسة [2].

وهكذا نشأت خصومة صارخة بين طرفين نقيضين. أما الطرف الأول فقد رفض كل ما هو غربي أو أجنبي بوجه عام ترافقه دعوة إلى حماية الحضارة الذاتية والتقوقع في الماضي.وترتّب على هذا تقيّدٌ بالنصوص الحرفية في التفسير، وتشدّدٌ في محاربة التجديد باعتباره بدعة تخرج الحضارة الذاتية عن جوهرها, فساد سوء الظن بكل التيارات الفكرية والمفكرين الَّذين وجّهوا عنايتهم إلى أية مصادر عقلية, فاعتبروا الفلاسفة أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد دخلاء على مسار الأصالة في التاريخ الإسلامي, واقعين في أسر الفكر الغربي اليوناني. كما عّدوا المجددين المحدثين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي مفتونين بالحضارة الغربية, فكانوا بالتالي متَّهمين في حقيقة تديّنهم, مرفوضين عند دعاة الحرفّية والاكتفاء بالنصوص. لقد حدَّد مسار هذا الاتجاه السلفي عنصر آخر ألا وهو سوء الظن المطلق بكل ما هو غربي

١– كارلا كونينجهام، "**الأصولية الإسلامية ونظرية الدومينو**"، ترجمة حسن عبد الله جوهر, مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٥، تموز ١٩٩٦، ص١٥.

٢ – علي حرب، "**غزو ثقافي فتوحات فكرية**"، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٤ ، خريف ١٩٩٣، ص٦٤.

وافتراض نَّية التآمر والعودة إلى احتلال المواقع العسكرية القديمة, فقام هذا الاتجاه بالتركيز على الظواهر السلبية في الحياة الغربية مقدّماً للأجيال صورة مبسّطة قاتمة للحضارة الغربية على أساس أنها حضارة مادية عدوانية... تشجّع الانحلال الخلقي لدرجة أن الإسلاميين الأصوليين ذهبوا أبعد من ذلك حين رفضوا كل نتاجات الغرب الفكرية والسياسية. فالديمقراطية مثلاً برأيهم ما هي إلا فكرة جاهلية تسعى إلى تحكيم منهج الأغلبية ولو كان باطلاً دون وضع ضوابط تحول دونهم ودون الضلال [١].

وكان الطرف الثاني النقيض لسابقه موقف الَّذين جُذبوا بشكل كامل إلى الحضارة الغربية فانخلعوا من جذورهم الحضارية ووصلوا أنفسهم فكرياً ووجدانياً بالغرب, كما تصوّروا أن الأصالة والمحافظة معوقان مانعان من تحقيق التحديث والتقدم.

لقد نادى معظم رواد النهضة في القرن التاسع عشر ودعاتها في القرن العشرين بإحياء ما يسمّى بالوجوه المشرقة في تراثنا من خلال العودة إلى سيرة السلف الصالح, غير أن هذه النداءات كانت ومازالت ذات أفق برغماتي محض وسطحي إلى درجة كبيرة، فقد اقتصروا على مخاطبة وجدان الناس وتحريك الخيال الشعبي. هذا شأن من التجأ إلى التراث بوصفه وسيلة تعبئة وتجنيد. أما الَّذين اقتبسوا أسس الحداثة ومظاهرها من الغرب فقد لجؤوا إلى النواحي المشرقة من التراث لاتخاذها غطاء لتمرير المظاهر الحداثية الغربية دون أن يفعّلوا هذه النواحي أو يكشفوا عن أصولها مما خلق آثاراً سلبية على عملية النهضة ومشروعها بسبب هذا التوظيف البرغماتي السطحي في كلتا الحالين.

ومن هنا نشأ موقفان واضحان: أولهما يوظف التعبئة الدينية في الإصلاح السياسي وكان رائده جمال الدين الأفغاني، وثانيهما وظّف المهادنة السياسية في الإصلاح الديني والاجتماعي وقد دعا إليه محمد عبده. إنهما موقفان تكررا معاً طوال العصور الماضية من التاريخ العربي ولا زالا يتكرران في عصرنا الحاضر بصور شتّى[٢].

وهكذا ألبس جمال الدين الأفغاني رأيه السياسي لبوساً دينياً فماهى، وطابق بين السياسة والدين فصار الخصم السياسي بنظره خصماً دينياً مما فسح المجال لظهور الخلاف من جديد وانقسام الأمة فرقاً وأحزاباً، وتحوّل بعض الأمَّة ضد بعضها الآخر بدلاً من الانشغال بالخصم الأساسي ألا وهو الاستعمار. ثمَّ أن الأفغاني لم يقدِّم

١ – أحمد ثابت، "**رؤية الجماعات الإسلامية المتشددة للغرب**"، مصر, الأهرام، مركز الدارسات السياسية والإستراتيجية, ١٩٩٩، ص٢٢.

٢ – محمد عابد الجابري ,"**المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية**",بيروت , مركز دراسات الوحدة العربية , ط١ , كانون الأول , ١٩٩٦, ص٧٩.

أي مشروع سياسي بديل بعد النهوض والثورة ولم يذكر شيئاً عن شكل الحكم ونوع الروابط بين حكومات بلاد الشام وغيرها من أقطار العالم الإسلامي، أو ما هي الطريقة الواجب اعتمادها في تنصيب الحكام... وما إلى هنالك. بل كان جلّ اهتمامه الرفض الصريح والعنيد للديمقراطية الغربية ومجالسها النيابية وفي هذا المجال لم يقدِّم أيضاً أي بديل سياسي. هذه الإستراتيجية هي نفسها إستراتيجية ما يسمّى اليوم بـ(الإسلام السياسي). إنها إستراتيجية توظيف الدين في السياسة والارتفاع بالسياسة إلى مستوى العقيدة, وبالتالي ربط الدين بالسياسة ربطاً براغماتياً مما أدى إلى نوع من التعالي بالسياسة تحوّلت معه هذه الأخيرة إلى عقيدة [١].

أمّا الموقف الآخر النقيض لهذا فقد تجلّى بتوظيف السياسة من أجل الدين إذ تعامل محمد عبده مع الحاكم الانكليزي (اللورد كرومر)، وتقرّب من الخديوي إسماعيل (ملك مصر) ظناً منه أن ذلك يمكّنه من التسرب بالإصلاح إلى بعض مراكز النفوذ. وبالتالي اقترح محمد عبده على الخديوي إسماعيل أن يتّجه بالإصلاح إلى المؤسسات الدينية التي لا شأن للإنكليز بها ما دام ذلك لا يمسّ مركزهم السياسي, ومن ثم لن يعترضوا على إصلاحها وخاصَّة الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية, إلا أن النتيجة كانت عكس ما توقع إذ وقف شيوخ هذه المؤسسة ضد الإصلاح وضد محمد عبده عينه بل واتهموه بالكفر، إذ أنه في دعوته لإصلاح الأزهر يمّس كيانهم الفكري والمادي مسّاً خطيراً, ولم يسلم كذلك من سخط زعماء الحركة الوطنية المصرية لأنه تعاون مع الإنكليز, كذلك وقف الخديوي إسماعيل ضّد محمد عبده فقد كان يتجاوزه حين عد السلطة الحقيقية بيد الإنكليز وبالتالي رأى الخديوي أن نتائج الإصلاح ستكون في نهاية المطاف ضدّه[٢].

هذا هو تيارالسلفية الَّذي كان الشيخ محمد عبده رائده وداعيته، وهذا التيار ما هو إلا على طرف نقيض على مستوى طريقة العمل من تيار الإسلام السياسي الَّذي مثّله وعمل له الأفغاني فالأول أي السلفي يوظف السياسة لأجل الدين ويجعل منها وسيلة لتمرير الإصلاح, بينما الثاني ثوري يجعل من الشعور الديني وقوداً للسياسة. وكلاهما ما استطاعا التخلص من الأفق البرغماتي المحض ولا من السطحية التي وصلت إلى درجة منفرة، لتبقى مسألة العلاقة بين الدين والسياسة تتكرر عبر تاريخ الإسلام حتى هذا الوقت دون أن تحل الأزمة أو تحقق أية فاعلية إيجابية على أرض الواقع.

لقد جاءت قراءات الخطابات الإسلامية للغرب مصاحبة للظروف الموضوعية التي كانت تدفع بهذه الخطابات نحو قراءة الغرب من زاوية الاستعمار الَّذي قام بعمليات تدمير منظمة وشاملة كبرى لكل البنى التحتية والأساسية خلال عقود من السيطرة, فالعقل العربي كان مثقلاً بالإرث الاستعماري, ومما ساعد على تشكيل هذه

---

١ – محمد عابد الجابري ,"**المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية**",مرجع سابق ،ص٧٣– ٧٤.

٢ – المرجع السابق، ص ٧٧ –٧٨ .

الرؤية الرافضة والصدامية للغرب هو الغرب ذاته الَّذي كان يتقدم للعالم الإسلامي بخطاب يعلن فيــه صــراحةً عداوته للعرب والمسلمين[1]. فأوربا لم تكن مخلصة في نقل التقدم العلمي والحضاري الَّذي وصلت إليــه, كمــا ادّعت, إلى الدول والمجتمعات التي استعمرتها, فلقد كان سلوكها العملي فــي الشــرق يتنــاقض مــع مســلكها الحضاري في مواطنها الأصلية, لذا كان من الصعب على الخطابات الإسلامية آنذاك أن تقرأ الغرب من زاويــة معرفية أو حضارية وهي التي يتهددها الخطر منه, وكان من الصعوبة عليها حماية الذات من جهة أخرى. وبعد الاستقلال عن الاستعمار الغربي في خمسينيات القرن الماضي لم يحدث شيء جــوهري ذو فاعليــة فــي هــذه الخطابات الإسلامية بل ظلت تعيد إنتاج نفسها بأساليب متنوعة حتى اليوم, حيث يشعر العرب ومعهم جميع دول الأطراف بأنهم يتعرضون للتهميش المتزايد على المستويات كافة يوماً بعد يوم ويحس المواطن العربي باغتراب شبه تام عن الواقع الَّذي يعيش فيه وخاصَّة في المرحلة الراهنة في ظل انتصار العولمة، فزاد المأزق من حــدة التجاهل الملحوظ للثقافة العربية وللّغة العربية ولمراكز البحث العلمي شبه الفانية أو المغيبة عن الفعــل الثقــافي على امتداد العالم العربي وهزالة الإنتاج الثقافي المنشور باللغة العربية لدرجة بات معها التداول بالتراث العربي شبه معدوم على المستوى العالمي. هذا في وقت يتحول فيه العرب إلى كتلة بشرية تقاس بالتراكم الكمــي الَّــذي يزداد بالملايين عاماً بعد عام. ونتيجة لما سبق نشأ خلال هذه الحقبة نوعان من الخطابات.

الأول: خطاب الخصوصية الثقافية المغلقة الَّذي أعلن رفض الآخر وثقافته المغايرة, ظناً منــه أن الخصوصــية الثقافية ذات جوهر خالص غير قابل للتغيير, مرسخاً التعصب في أبعاده العرقية أو الدينية أو القومية.

أما الخطاب الثاني: فهو خطاب الخصوصية الثقافية النقدية المناوئ لنزعة التمركز الغربي وكافة أشكال التمركز التي تلغي الآخر, وهو لا يعتبر الخصوصية الثقافية جوهراً ثابتاً ولا معطى جاهزاً بل هي حصيلة تفاعــل مــع متغيرات العصر والواقع .

إن كلتا الثقافتين (ثقافة العولمة والثقافة المغلقة) تدَّعيان امتلاك الحل الوحيد، فالثقافة الأصولية تتجــاوز النــاس لأنها تنتمي إلى مرجعيات فوق بشرية، وبالمثل فإن ثقافة العولمة تجعل سلطان المال وسلطة السوق مــا فــوق وطنية[2] .

لقد اتسم سلوك الإنسان الشرقي بشكل عام بالتنسّك والزهد والتقشف الَّذي يعزله عن الآخرين وعن العالم وعــن نفسه. إنه يهرب أمام العالم, فظل العالم غير مكترث به، لأن تطلّعه إلى الطمأنينة الروحية لا غير جعلــه ضــيفاً

---

١ – خالد زيادة," **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا**",بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣، ص٢٣٥.

٢ – مصطفى حجازي,"**حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية** ",بيروت, المركز الثقافي العربي, ١٩٩٨, ص١٥٧–١٥٨.

على العالم لا يكترث أي منهما بالآخر حتى أنه سعى إلى قتل غرائزه وقهرها بل وقتل حواسه أيضاً, وهكذا ظلت الطبيعة قوة معادية، والعالم عقبة في وجه تحرره الذاتي. وبالتالي بقي الإنسان الشرقي إنساناً مجرداً في حين نجح الإنسان الغربي في تعيين نفسه لأنه نجح في تحويل العالم إلى وساطة بينه وبين ذاته(١).

كأن الإنسان العربي قد استيقظ لتوّه من سبات عميق دام حوالي ثمانية قرون, فوجد تاريخه قد تراكمت عليه الأتربة بسبب توقف الفكر العربي عن التطور مدى هذه القرون الطويلة فكانت الحصيلة أن امتزج بالكثير من الخرافات، إلا أن قسماً كبيراً آخر راح منبهراً بتقدم الغرب العلمي والتكنولوجي والفكري فانتابه مركب نقص فأصبح تابعاً منفصلاً عن جذوره. أما المفكرون اليوم في عالمنا العربي فهم متأثرون بنظام تعليمهم وبخبراتهم واطلاعاتهم, فالتعليم هنا ناقص إلى حد بعيد, فهو إما تعليم علماني غربي يتجاهل الحضارة الإسلامية تجاهلاً شبه تام، وإما تعليم ديني يعّبر عن التخلف الحضاري ويحتوي رواسبه مهملاً جزءاً كبيراً من تاريخ الحضارة الإسلامي, حتى أن الاطلاع مقصور فقط على ما يكتب باللغة العربية, أما الاطلاع على الآداب والفنون والحضارات الأخرى فقد حُمل من قبل البعض على أنه ضرب من الخطأ, وهذا ما أوضحه الدكتور طه حسين عندما اقترح أن يترجم أدب شكسبير وأن تقوم بأعباء المشروع مؤسسة العمل العربي المشترك فلامه لائمون، فكتب: "لقد قال البعض: ما للجامعة العربية ولترجمة شكسبير؟! أليس الحق على هذه الجامعة أن تترجم للعرب ما يمس عروبتهم، وما يمس منافعهم المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية بشرط أن تكون هذه الآثار الثقافية متصلة بهم وبأوطانهم...", ويتابع موضحاً أن الجامعة العربية لا تقف نشاطها عند هذا الحد, وإنما تريد أن توسع الثقافة العربية العامة إلى أبعد مدى، وترفعها إلى أرقى منزلة. وفي ذلك ترقية للشعوب العربية وتمكين من الأخذ بأسباب النهضة الصحيحة المنتجة (٢) .

هذه بعض مشكلات الثقافة العربية ولكنها جوهر ما تعانيه من حيث الفكر, أما معوقاتها على الصعيد الإداري فيمكن القول فيها: إن معظم العالم العربي اليوم كوكب تابع فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة. فأغلب جامعاته تدار, بشكل عام, تبعاً لنسق ما موروث عن، أو مفروض مباشرة من قبل قوة مستعمرة سابقاً.

كما أنَّ واقع المناهج الدراسية في الكثير من البلدان العربية قاصرة إلى حد كبير ، صفوف يحتشد فيها مئات الطلاب، جهاز تدريسي مدرب تدريباً سيئاً، ومرهق بالعمل، ويتلقى رواتب سيئة، إضافة للغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدمة ولوسائل البحث العلمي، وأهم من ذلك الافتقار إلى مكتبات لائقة في المنطقة بأسرها.

---

١ – يوسف سلامة ,"**محاضرات في حوار الحضارات**"، دمشق،المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، ٢٠٠١، ص١٢٦.

٢ – عبد السلام المسدي، "**العولمة والعولمة المضادة**" ,القاهرة ،<< دون دار نشر >> , ١٩٨٨، ص٩٩.

كما أن القلة من الطلاب الَّذين يبشرون بخير، والَّذين ينجحون في الارتقاء عبر النظام التعليمي يتلقون التشـــجيع للحضور في الولايات المتحدة لمتابعة دراستهم العليا, ومعظمهم من يقبل ذلك التشجيع ويرحب به, وليس هنـــاك مجلة رئيسية ذات مكانة للدراسات العربية تصدر في الدول العربية, وليس ثمة مؤسسة تعليمية عربيـــة واحـــدة قادرة على مضاهاة أماكن مثل أكسفورد وهارفرد في دراسة العالم العربي ذاتـــه.وفيما توجـــد عشـــرات مـــن المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات المتحدة, لا توجد مؤسسة واحدة في الشـــرق لدراســـة الولايات المتحدة. حتى أنه لا يوجد معهد ذو مكانة ولو متواضعة في الشرق لدراسة الشرق نفسه[١].

وبالتالي, فإن الواقع الفكري في الوطن العربي محفوف بالمآزق الصعبة والكثيرة, تبدأ بالناحية الهيكلية والإدارية والشكلية, وتنتهي بالجوهر والمضمون, ولعل أبرز تجلّياتها هو الازدواج الخطيـــر الـــذي تعيشـــه المجتمعـــات الإسلامية والعربية, والذي تختلط فيه قيم روحية (سامية) بقيم مادية (وضيعة) ولم تفلح أبداً في فك الاشتباك بين الاثنين على أسس عقلية واضحة, وبالتالي لم تعد تلك المجتمعات قادرة على الدخول إلى قلب الحداثة, ولم تعـــد قادرة أيضاً على الانفصال عن الماضي، فكانت الثقافات الأصيلة أمام تحديين فـــي آن واحـــد إمـــا الـــذوبان أو الجمود.

وبذلك أصبحت كل من هاتين الثقافتين متمركزة حول ذاتها نافية لغيرها لا تعترف بالآخر إلا كنقيض أو عـــدوّ. ورغم هذا التناقض الظاهر بينهما إلا أنهما تلتقيان في العمق مع الأهداف الكبرى للعولمة الثقافية وتتكاملان فـــي القيام بنفس الأدوار والوظائف، فيكون اختزال الوجود الإنساني على طريقة ثقافة العولمة وما تبشر به من عـــالم الرغبة واللّذة والإثارة هو الوجه المتمم للاختزال الَّذي تقوم به الثقافة الأصولية بما تفرضه من تعـــاليم الامتنـــاع والتحريم والتقشف. فكلتا الحالين تصل بالإنسان إلى انعدام التوازن الوجودي .

والتكامل بين ثقافة العولمة وثقافة التعصب أعمق مما يبدو للوهلة الأولى، وموقفهما من الدولة والإنسان والمـــرأة والعنف والجنس مشترك في العمق, رغم كل الاختلافات الظاهرة بينهما.

إن مواجهة العنصرية الغربية تجاه الدول الإسلامية والعربية على وجه التحديد تحتاج لقيام ثورة فكرية في هـــذه الدول من أبسط حلقة حتى أعقدها.

---

١ – إدوارد سعيد ," **الاستشراق** ",مرجع سابق , ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

المبحث الثاني: الواقع السياسي والثقافي.

ينتقل الباحث من الإشكالية القائمة ما بين الدعوة إلى الحداثة، والدعوة إلى التراث, إلى إشكالية العلاقة مـا بـين الثقافة العربية والديمقراطية, ففي ظل غياب الديمقراطية جفت منابع الإبداع وهيمنت السياسة على الثقافة فقتلتها, وفي مجال الفكر السياسي والثقافة الحزبية بقيت جميع الأحزاب وما في حكمها تعيد إنتاج وشـرح وتفسـير مـا صاغه القادة التاريخيون، وندرت الاجتهادات الجديدة، وحيثما برزت اعتبرت خروجاً على النصوص المعتمـدة التي جرى التعامل معها، وكأنها نصوص قدسية، فللمفكر العربي حدود موضوعة له ممن يسعون إلى المحافظـة على سلطتهم يتحاشى نشر أية أفكار تنتقدهم وبالتالي يكاد من المستحيل تحليل الأوضاع القائمة تحليلاً صـحيحاً مما يفضي إلى ظهور تشخيصات خاطئة لمرض المجتمع العربي.

حتى أن الأحزاب المعترف بها، وذات الشرعية بقيت أحزاباً على الورق، وليس لها أي دور في الحياة السياسية، وظل التعدد الحزبي مجرد غطاء خارجي لسيطرة أو هيمنة حزب واحد، مما جعل العمل الحزبي فـي المنطقـة العربية يقوم على نفي الآخر.

كما برزت ظاهرة التشرذم والانشقاق في هذه الأحزاب وذلك لأسباب طائفية وشخصية, إضافة لضـعف القـدرة وحشد الجماهير بسبب فقدان الشفافية وعدم الصدقية لالتصاقها بأشخاص مكوّنيها فقد ارتبطـت نشـأة الحـزب واستمراره بشخص مؤسسه, كحزب الكتائب في لبنان الَّذي ارتبطت نشأته بالشيخ بيـار الجميّـل عـام ١٩٣٦، والحزب السوري القومي الاجتماعي وارتباط نشأته بمؤسسه أنطوان سعادة عام ١٩٣٢... وإلى ما هنالـك مـن أحزاب عديدة, فكان ارتباط الفرد بالمؤسس أكثر من ارتباطه بأهداف وبرنامج الحزب. هذا وما زالت الأحزاب العربية مجرد قنوات لتوسيع الموارد والمنافع على بعض الفئات دون فئات أخرى داخل الدولة[١].

لقد بقيت الأحزاب العربية هامشية ومحدودة الفاعلية ذلك لأنها أقرب إلى نظام الحـزب المسـيطر أو الحـزب الواحد, وبالتالي انتفت مقومات المنافسة السياسية الحقيقية التي تدور حول برامج سياسية متعددة, فانتفـت معهـا ممارسة الديمقراطية بشكلها الحقيقي الفعّال.

وإنَّ الدول العربية الراهنة بحاجة إلى قدر كبير من الوعي النظـري والمعرفـة التاريخيـة والإرادة السياسـية العقلانية كي تستطيع التوفيق بين وجودها النظري والواقعي وبين انتمائها العربي, فتراجع الأوضاع العربية فـي مجالات مختلفة سببه نقص المعرفة أو تشويهها لدى الشعب. وتأتي النخب الثقافية لتكرّس هذا التراجـع، وهـي تصوغ الوعي السائد في أفكار محددة فتقدم بالتالي للأنظمة السياسية أدوات العمل الفكرية .

---

١ – حسن أبو حمود،" **علم الاجتماع السياسي**"، مرجع سابق، ص٣١٣-٣١٤.

ولا يتحقق ذلك لهذه الأنظمة السياسية إلا من خلال تهميش المجتمع وإلغاء سعيه الدائم لتحقيق نفسه، وتدمير قدرته على التعبير عن حقائقه. وعندما يهمش المجتمع فإنه يتحول إلى رعية تسير كالقطيع وراء حقائق الغير. ولتحقيق ذلك ادّعت هذه النخب أن المجتمع العربي الراهن يعيش حالة جاهلية كما يقول (الإسلاميون الأصوليون)، أو حالة متخلفة كما يقول (اليساريون الثوريون). لكن الصحيح أنه لا أخطر على الحقيقة أكثر من خطر الَّذين يدّعون امتلاكها، فالحقيقة ليست ملكاً لأحد وليست هي التي تفرض على الناس، بل هي ما يصنعه الناس بتعاونهم وتحاورهم وعملهم المشترك[١].

أما العلاقة بين السياسة والأيديولوجيا فقد كانت إلى درجة التعارض الصريح. فالأيديولوجيا القومية التي بشرت بالوحدة العربية وعبأت العواطف والعقول للعمل في سبيلها لعبت ضدها سياسة الحكام والأحزاب والبيروقراطية العربية التي عملت على تكريس التجزئة وتثبيت الدولة القطرية. وما أسباب ذلك إلا لأمر في غاية الوضوح ألا وهو تعارض مصالح وطموحات المحكومين مع مصالح وإرادة الحاكمين، وكان ذلك نتيجة واضحة لغياب الديمقراطية, فما دام المحكومون لا يختارون حكامهم وليس لديهم القدرة على مراقبتهم أو الضغط عليهم أو عزلهم عند الضرورة, هذا إضافة لاعتماد الحكام في تسلمهم السلطة واستمرارهم فيها على وسائل غير انتخاب المحكومين لهم بطريقة حرة نزيهة, فقد كان من الطبيعي أن يحدث انفصال بين السياسة والأيديولوجيا.

إن كل النخب التي حكمت في الوطن العربي كانت وما تزال تخاف الديمقراطية لأن علاقاتها بالمجتمع لا تمرّ عبر مؤسسات من نوع مؤسسات المجتمع المدني بل عبر علاقات من نوع آخر وهي علاقات القبلية والطائفية والولاء والزبونية والعطاء والرشوة وما إلى هنالك....[٢] .

لقد كان المنطق السائد بشكل عملي هو (نعم للوحدة) ولكن بعد بناء الدولة القطرية. وهذا ما يسمح للدول الكبيرة في الوطن العربي ضمان مركز الصدارة والقيادة، وكذلك يضمن للدول العربية الصغيرة وجودها وتلافي ذوبانها. وبذلك فإن كل اتفاقيات الوحدة والاتحاد والتنسيق بين قطرين عربيين أو أكثر والتي زاد عددها على العشرين منذ إعلان الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ كلها عدا هذه الأخيرة إما أنها ولدت ميتة، أو بقيت جامدة مشلولة لا فاعلية لها, وذلك لأنها بمجملها كانت تقفز على الواقع وتشرّع للإرادة الشعبية من الأعلى مشابةً بالانتهازية وبالاعتبارات الظرفية التي ما إن تنتهي حتى يعود الأمر كما كان عليه .

---

١ – الفضل شلق ,"**النخبة تجاه المجتمع والدولة وأفكار مقترحة حول التجديد** ", مقال غير منشور , ألقي في كلية العلوم السياسية عام ٢٠٠٣, ص ٥ –٦ .

٢ – محمد عابد الجابري ,"**المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية** ",مرجع سابق , ص١٤٥ .

وهكذا وجد العرب أنفسهم اليوم أمام دول قطرية مستقلة ذات وضع قانوني مكرّس ليس فقط في المحافل الدولية بل أيضاً في جامعة الدول العربية التي لم تعترف بالعضوية فيها لأي قطر عربي إلا بعد أن أسس دولته القطرية واعترف له بها من قبل المنظمات الدولية . وصارت العلاقات السياسية بين الدول العربية أقل متانة بكثير من علاقاتها بدول غير عربية بشكل منفرد سواء مع فرنسا أو إنكلترا أو حتى أمريكا... وما زالت كذلك حتى في مجالات أخرى متعددة اقتصادية أو ثقافية... فلكل دولة من الدول العربية برامجها التعليمية، ومجامعها العلمية واللغوية الخاصَّة بها .

كذلك الأمر بالنسبة للإعلام, فالإعلام العربي ما هو إلاَّ إعلام قطري تُعنى به وتحركه مصالح قطرية بالدرجة الأولى. فميثاق جامعة الدول العربية المعلن في ٢٢ آذار عام ١٩٤٥ كان خالياً من أية إشارة إلى العمل الإعلامي وما ذلك إلا لاعتبار القادة أن الإعلام ضمن كل بلد عربي هو من اختصاص ومسؤولية الدولة وحدها, وليس من سبب لهذا سوى تجسيدهم لمفهوم السيادة القطرية والحذر من تدخل جهات خارجية في التأثير على مواطنيها (١).

لقد انجرّت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم نحو فلسفة إنجاز الوحدة الثقافية العربية فنشأ عن ذلك تبلور خطاب توحيد ثقافي لا خطاب وحدة ثقافية. وخطاب التوحيد ليس كخطاب الوحدة، فكل خطاب توحيدي إنما ينطلق من الإقرار بالاختلاف والاعتراف باحتمال تكريسه (٢).

من خلال هذا نشأ مأزق الثنائية الضدية، وصار السؤال كالتالي: أعن فلسفة الوحدة الثقافية القائمة تصدر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم, أم عن فلسفة الوحدة الثقافية المنشودة؟

في الحقيقة, إن هذه المعاني تخدم التجزئة والتباعد الثقافي وتمزق وحدة الثقافة، وبالتالي وحدة الأمة العربية .

ومن هنا برزت البدائل (التعاون الثقافي العربي والتنسيق الثقافي العربي والتكافل والتكامل), بل وحتى شعار العمل الثقافي العربي المشترك. كلها ثمرات شجرة الفلسفة التي أينعت فلسفة إقامة الوحدة الثقافية (أي توحيد الثقافة) لا فلسفة الوحدة الثقافية القائمة, وبذلك تم ترسيخ الظن بأن العامل الثقافي هو تابع للعامل السياسي بل محكوم عليه من قِبله.

---

١ – مصطفى المصمودي،" **الخطاب الإعلامي العربي الجماعي للرأي العام الخارجي ما بين تراخي الإرادة وضعف القدرة**" مجلة شؤون عربية، العدد ١٠٨، كانون الأول ،٢٠٠١،ص٣٥.

٢– عبد السلام المسدي ,"**العولمة والعولمة المضادة**" ,مرجع سابق , ص٩٣.

ومن الأخطاء التي وقع بها كثيرون أنهم انساقوا إلى حمل التعدد السياسي على معنى التعدد الثقافي بالضــرورة، مثلما خلطوا بين الثقافة وهي جوهر، وبين الثقافة وهي قرار إجرائي, فكانت النتيجة أن عمــل الكثيــرون علــى التوحيد السياسي، وعلى التوحيد الثقافي بنفس الوقت، وظنوا أن إنجاز الوحدة الثقافية ســيقرب ســاعة الوحــدة السياسية طبقاً لفلسفة (التمكين) التي نص عليها دستور المنظمة، ولكن الحقيقة مخالفة لذلك، فالتعــدد السياســي كثيراً ما يخفي وراءه توحّداً ثقافياً كاملاً. كما أن التوحد السياسي لا يعني بالضرورة توحداً ثقافياً، ومثــال ذلــك انفجار الأنموذج السوفييتي، وانفجار الأنموذج اليوغسلافي. لقد خاصمنا التاريخ إذن عندما غلّبنا العامل السياسي على العامل الثقافي.

هذا هو الاستقلال التام السياسي والثقافي والاقتصادي الَّذي تتمتع به وتحرص عليه كل دولة عربية إزاء جاراتها في جامعة الدول العربية. لا بل فإن المأزق أكبر من هذا, حيث أن المشاكل تفاقمت بين الدول العربية، كــالنزاع المسلح بين اليمن واريتريا حول جزر باب المندب الإستراتيجية، وقضية الصحراء التي هددت منذ زمــن بعيــد العلاقات بين المغرب والجزائر.... وغير ذلك من أزمات وخلافات. ثم أين العرب مــن الجــوع الَّــذي كــان مفروضاً على شعب العراق من قبل الدول الكبرى ومن قبل دول عربية أخرى في فترة التسعينيات مــن القــرن الماضي؟. بل أين هم من الحرب الأمريكية على العراق فيما بعد؟ أو من الحصــار المفــروض علــى الشــعب الفلسطيني؟أو من التدخل الأمريكي في دارفور؟ أو من الحرب الأهلية في الصومال؟ أو من العدوان الإســرائيلي على لبنان في فترات متعددة ؟ وما إلى هنالك من أزمات وكوارث سياسية واقتصادية تعترض منــاطق عربيــة أخرى ومشاكل حدود كانت على درجة من الخطورة, بحيث جعلت الجميع وعلى رأسهم جامعة الــدول العربيــة يقفون مكتوفي الأيدي يفضلون الصمت على أن تنفجر هذه المشكلات . حتى أن شعار (الدولة الفلسطينية) الَّــذي كان يعتبر في الستينيات من القرن الماضي إلحاداً في حق القومية العربية حيث كان ينظر إلى القضية الفلسطينية بوصفها الخاص الَّذي سيتحقق عبره العام ألا وهو الوحدة، لقد أصبح هذا الشعار (الدولة الفلسطينية) اليوم شــيئاً مقبولاً مطلوباً حتى بصيغة أدنى من التي توجد ضمنها الدول القطرية العربية الأخرى .

وهكذا فإن قضايا الوحدة العربية، والوقوف في وجه التدخل الغربي، وتحرير المرأة، ونشــر التعلــيم ومحاربــة مظاهر التخلف والاستبداد والظلم، والمطالبة بالديمقراطية والشورى, إضافة لطموح التطور في ميادين الصناعة والتكنولوجيا، والأخذ بأكبر نصيب منهما. كل هذه القضايا ما زالت أهدافاً تنتظر التحقيق منذ أن شكلت قوام فكر النهضة العربية في القرن التاسع عشر.

بل أن أول المطالب والشعارات التي رفعت في ذلك الوقت أي شعار القومية العربية أصبح يصــنف الآن علــى رأس الشعارات التي توصف بأنها سقطت أو فشلت، بل وتم الذهاب إلى أكثر من ذلك, حيث عقدت عدَّة اتفاقيات

أفضت إلى التطبيع السياسي بين إسرائيل وبعض الدول العربية . هذا عدا عن محاولات- أمريكية إسرائيلية- لفرض التطبيع الثقافي. أمّا على الصعيد الاقتصادي فإن مواجهة الاستعمار والإمبريالية قد حلت محلها الرغبة أو الاضطرار في الاندماج بالاقتصاد العالمي بما يعّبر عنه بالانفتاح.

وأخيراً يمكن القول: إن المشكلات التي يعاني منها الواقع السياسي العربي كثيرة ومتنوعة إلا أن أوضحها وأبلغها هو ما تمت الإشارة إليه، وتبقى أبرز ظاهرة وأخطرها في وقتنا الراهن هي الاختلاف والخلاف بين نظام عربي وآخر حول خطر, وماهيّة العدو. فما هو تصنيف إسرائيل على أجندة المواجهة لدى بعض الأنظمة العربية التي أقامت معها علاقات ودية، وما هو وضع أمريكا كذلك؟ أم أن تلك الدول ترى أن عدوها هو إيران بدلاً من إسرائيل.؟

المبحث الثالث: الإستراتيجية البديلة، وبعض الحلول الممكنة في ظل الظروف الراهنة.

إن الخطوة الأولى التي تضع الأمة على بداية الطريق المؤدي إلى التجدد والإبداع إنما تكمن في إغنـــاء الهويـــة التاريخية، وليس بتكرار القديم. فالهوية يجب أن تكون مركّبة مفتوحة ومرنة وقابلة لإعادة الشكل والصياغة بمـــا يتوافق مع تحقيق المهام المطلوبة، وإشباع الحاجات الثقافية والجمالية والروحية لأفراد المجتمع، وعليها بالتـــالي تجاوز تضاد الثنائيات التبسيطية التي أخذت شاكلة: " إما ثقافة العولمة، أو الانعزالية الثقافية"، "إمـــا ديمقراطيـــة على الطريقة الغربية، أو استبداد مطلق"، " إما جسد ورغبات, أو روح وتسامٍ ومثل عليا"، "إما فقر وعدالـــة, أو غنى واستغلال"، "إما قوانين وضعية دنيوية، أو تشريعة إلهية مقدسة"...، وما إلى هنالك.

إن تجاوز هذه المشكلة إنما يتم في البداية من خلال المصالحة ما بين الدعوتين (الحداثة، والعودة إلى الماضـــي) مع رفض التيارات التوفيقية السطحية، بل يجب الوصول إلى منطق تركيبي تعددي وعقلاني يؤدي إلى تجـــاوز التناقض، والانتقال إلى مستوى الإبداع الَّذي ينعكس في إنجازات علمية اجتماعية وعلمية تكنولوجية, وليس فـــي مستويات أيديولوجيّة رخيصة. أما نجحت تجربة المغرب العربي أكثر من غيرها في باقي البلدان العربية خـــلال العشرينيات حتى منتصف الخمسينيات من القرن الماضي؟ ذلك أن الوجه الآخر – للتيارات الفكريـــة النهضـــوية في تلك الفترة السلفية منها والليبرالية والقومية – الَّذي يعكس الخصومات السياسية والأيديولوجية لم يكن يعنـــي المغرب في شيء.

فأفكار محمد عبده الإصلاحية في مجال العقيدة والسلوك الديني والتربية والتعليم اندمجت مـــع أفكـــار زعمـــاء الوطنية، دعاة التجديد والتحديث المصريين والسوريين واللبنانيين وغيرهم لتشكلا معاً حركـــة فكريـــة سياســـية جديدة في المغرب العربي أطلق عليها اسم السلفية الوطنية أوالسلفية الجديدة تلائم ظروفه وحاجاته وتطلعاته, تلك التي عملت على تطهير الدين من الخرافات ودعت إلى انفتاح العقل على كل جديد، وتوجيهه وجهـــة المصـــلحة العامة، والتعامل على أساس الإخاء الإسلامي والإنساني وتجاوز الخلافات وحرية العقيدة والفكر مقتنعةً ومطالبةً بالقومية المبنيّة على أساس الروابط الإقليمية بين جميع المسلمين والتآخي بين الأمم الإسلامية بعيداً عن الـــروح العنصرية أو الدينية, وجعل اللغة العربية لسان العالم الإسلامي وصلة الوصل بين أفراده, إضافة لوضع نـــواب أكفاء تختارهم الأمة والشعب [1].

النتيجة هي أن لدى الأمة الاسلامية ما يكفيها، ويكفي الإنسانية لو أنها عرفت كيف ترجع لـــه، وتجتهـــد فيـــه، وتستثمره, فالبعض من التوفيقيين يقرؤون قيم الحداثة الأوربية في التراث الإسلامي ، كأن يقرؤوا الديمقراطيـــة

---

١ – محمد عابد الجابري ,"**المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية** ",مرجع سابق, ص ٨١ – ٨٢ .

في الشورى، والعقلانية في دعوة القرآن إلى استعمال العقل، وفي فكر الفلاسفة الإسلاميين، ويقــرؤوا الحريــة والمساواة وحقوق الإنسان في النصوص الدينية...إلخ.

ومن التوفيقيين من يقرأ التراث الإسلامي في الحداثة الأوربية، فيرى أن الإصلاح الديني في أوربا إنما حصــل متأثراً بالإسلام الَّذي يجعل العلاقة بين الفرد والله دون وساطة, كما أن العلوم الطبيعية الحديثة في أوربــا إنمــا أخذت من علماء العرب كابن الهيثم، وكذلك الطب الأوربي الَّذي اعتمد حتى القرن السابع عشــر علــى الطــب العربي وخاصةً ابن سينا, أما الشك الديكارتي فهو مستوحى من شك الغزالي, حتى أن الفلسفة الأوربية الحديثــة قد احتضنت آراء وشروح ابن رشد....إلخ [١] .

نعم يجب العودة إلى هذه النقاط الأصيلة المضيئة مع ضرورة فهم الأصالة على أنها القــدرة علــى الاســتمرار والحوار النقدي الإيجابي مع المتغيرات. فالثقافة التي لا تتجدد إنما هي ثقافة خالية من الإبداع، وبالتــالي فمــن الضروري محاصرة الدعوة إلى العزلة الثقافية داخل المجتمعات العربية والإسلامية، فتتوجَّه عندها إلى ممارسة ثقافة الحوار مع الآخر. على أن تنطلق من خطاب غير دفاعي وغير اعتذاري, بل أن تعي من خلالــه قــدرتها على تحقيق توازن في الرؤية أساسه الفاعلية .

ومن الواجب أيضاً ألا يقتصر الحوار الحقيقي مع الغرب على مناظرات أكاديمية سطحية أو على مجالس يؤمها رجال الدين من كلا الطرفين الشرقي والغربي للإدلاء بتعاليم التسامح التي تأمر بها كلتــا الــديانتين الإســلامية والمسيحية.

وألا يقتصر كذلك على الأنشطة ذات الطبيعة الثقافية البحتة، فأجهزة التعليم والتربية ووسائل الإعــلام ومراكــز البحوث ليست القنوات الوحيدة للعمل الثقافي في عصر يتقاطع فيه الثقافي مع السياسي والاقتصــادي, وبالتــالي يجب فتح قنوات التأثير والتأثر مع أجهزة ذات أنشطة أخرى سياسية واقتصادية مع عدم الاقتصار على قنــوات الحركة المباشرة للفعل الثقافي[٢] .

ولكي يتحقق هذا التأثير والتأثر بشكل فعال كان على الأمة الإسلامية بداية أن تتوقف عن تصوير الغــرب بأنــه عدو للعرب والمسلمين، وملاحظة أن كلمة غرب لدى العرب والمسلمين تكاد تكشف عن موقف عــاطفي غيــر

---

١ – محمد عابد الجابري ,"**المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية** ",مرجع سابق ، ص١٣٣–١٣٤.

٢ – نادية محمود مصطفى ,"**محاضرات في حوار الحضارات** ", دمشق , المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية في دمشــق , ٢٠٠١ , ص ١٨٩ .

علمي, وبالتالي عليها احترام الخصوصية الاجتماعية لكل مجموعة حضارية، وإقصاء النظرة الاستعلائية، والتمكين لفكرة التنوع الاجتماعي [1].

إذاً لا تجوز مجابهة الغرب بصيغ مبتذلة كالتهليل فرحاً عندما تضرب كارثة بلداً غربياً، أو من خلال تبرير الفقر والجهل بإلقاء السبب على الآخرين بحجة أنهم يعيقون تقدمهم، أومن خلال التحذير، والرفض لمخاطر العولمة التي سلبتهم هويتهم الثقافية والحضارية فتكون النتيجة دخول نفق الانغلاق ورفض الآخر بشكل كلي.

لقد اتصفت الكثير من الكتابات الإسلامية بالمنهجية الهجومية حيث أنها اكتفت بوصم الحضارة الغربية بالعنصرية والمادية والاستكبارية والانحلال والشر والكفر, دون أن تتوصل إلى قانون السببية الَّذي جعل تلك الحضارة تحتفظ لنفسها بأسباب بقائها وتفوقها ودون أن تعي جواباً لسؤال يطرح نفسه قائلاً: هل ستؤثر تلك الأوصاف التي تُنعَت بها هذه الحضارة على قناعات من يسمعونها, أو هل ستغير من أفكارهم، أو حتى من مسار الغرب المتقدم؟ [2].

وبمقارنة واضحة بسيطة يلاحظ أن العربي على العكس من الطالب الياباني الَّذي ذهب إلى الغرب للدراسة فطلب العلم وأخذه، ووضعه موضع التطور فأذهل العالم بتفوقه وسرعته ومنافسته. أما العرب فماذا أخذوا، أو ماذا طوروا؟

وجب إذاً على المسلمين والعرب تجنب الرفض الانفعالي، أو القبول المجاني لأي شيء يأتيهم من الغرب لأن كلا الموقفين لا يغير مما يجري شيئاً، ولا يقلل من خطورته، وعليهم التخلص من تلك الحساسية المفرطة لكل ماله علاقة بالغرب, هذا ما يُلاحظ في مختلف الخطابات الإسلامية التي تشوبها مسبقات الأحكام بالرفض. وصحيح أنه حين تم استعرض صورة المسلم والعربي في الذهنية الغربية عبر مراحل التاريخ مروراً بالحروب الصليبية حتى عصر الاستعمار الغربي والإمبريالية و الاستعباد والاستغلال, كانت النتائج غاية في السوء فرضها الغرب على المسلمين، مصوراً إياهم بأبشع الصور وأرعبها, ولكن السؤال الَّذي يفرض نفسه: هل يستطيع المثقف العربي والمسلم أن يلعب دور الوسيط وأن يساهم في تعرية تلك الصورة التي وضعه بها الغرب؟ [3].

---

١ – برهان غليون، "**اغتيال العقل– تراجيديا الثقافة العربية**"، عرض أحمد حداد، مجلة الفكر العربي المعاصر, العدد٤١، آذار,١٩٨٦، ص١١٤.

٢ – زكي الميلاد، "**الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل**"، دمشق, دار الفكر ، ١٩٩٨, ص٩٣.

٣ – محمد أركون، "**الإسلام وأوربا والغرب**: **رهانات المعنى وإرادات الهيمنة**"، ترجمة هشام صالح، بيروت، دار الساقي, ١٩٩٥، ص٤٦.

فكل هذه الحقائق ينبغي ألا تسلب منهم العقل، أو تجعل العاطفة تأسرهم، وألا يؤخذوا بـــردود الأفعـــال وتوجيـــه الاتهامات غير الفعالة. وهذا سؤال إلى أولئك المتمسكين بالدين المتخذين منه عباءة لتشددهم وتزمّتهم: أما نصت بعض الأحاديث الشريفة على أن أعقل الناس هو من جمع عقول الناس إلى عقله، وأن أعلم الناس هو من جمـــع علوم الناس إلى علمه, وبأن المؤمن أولى من غيره بطلب الحكمة حتى ولو من الكافر؟ وهل المؤمن أو المســـلم هو الَّذي يمتلك ناصية العقل والعلم فقط؟ (١).

من الضروري إذاً قبل رفض أية مفاهيم أياً كان مصدرها أن يتم التأمّل فيها, علماً أن مفكري الإسلام وفلاسفته منذ قرون عديدة قد خاضوا في هذا المجال, فابن رشد مثلاً كان قد أكد على ضرورة الأخذ بالعقلانيـــة، لا بـــل ووجوبها أيضاً إذ يقول: "إن الشرع أوجب النظر العقلي في الموجودات،واعتبارها" مبيناً وجوب النظر في قـــول من تقدَّموا من الأمم السالفة، وما أثبتوه في كتبهم, فما كان منها موافقاً للحق يجب قبوله والشكر عليه، وما كـــان منها غير موافق للحق لا بد من التنبيه عليه, والحذر منه. و يمكن الرجوع بجميع قضايا الحداثة المعاصرة إلـــى أصل واحد هو المصلحة العامة, فما كان منها يحقق مصلحة الإنسان والجماعة فهو واجب, فلو تم طرح مسألة الديمقراطية مثلاً على الشكل التالي: أيهما يحقق المصلحة العامة أهو حكم الفرد المستبد، أو الحكم القـــائم علـــى الانتخاب الحر النزيه وعلى المراقبة الفعلية للحكام؟ الجواب واضح ومعروف, هكذا يمكن قياس بـــاقي قضـــايا الحداثة واحدة تلو الأخرى على هذا النحو.

لقد آن الأوان لمراجعة معارف المسلم والعربي عن الغرب، ولإعادة النظر في المسلمات الراسخة فـــي أذهـــانهم عنه وبناء صورة جديدة تساعد على تقديم معرفة عقلانية وليست عاطفية أو انفعالية فالعربي أو المســـلم بشـــكل عام يشتكي من تشويه الغرب لصورته لكنه لا ينتبه إلى أن صورة الغرب ليست أقل تشويهاً لديه. وبالتالي فـــإن من أولى أهداف حوار الحضارات الَّذي يطرح الآن أن لا يكون فقط لتحسين صورة المسلم العربي لدى الغرب, ولكن لتحسين صورة الغرب لديهم (٢).

كما أنه بالدعوة إلى الحوار بين الحضارات قد يسهم المسلمون والعرب في تخلـــيص الجانـــب المضـــيء مـــن الحضارة الإنسانية في أوربا وأمريكا من أيدي مجرميها الساعين لتدمير ما هو جميل في قيمها بواسطة إشـــعال الحروب والصراعات بين أمم الأرض(٣).

---

١ - زكي الميلاد، "**الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل**"، مرجع سابق ، ص ٩٥-٩٦.

٢ - نادية مصطفى، "**أولى حروب القرن الواحد والعشرين، ووضع الأمة الإسلامية، وبروز التحديات الحضارية والثقافيـــة**" مـــؤتمر ((كيف نواصل مشروع حوار الحضارات)), دمشق،٢٠٠٢،ص ٧.

٣ - محمد محمد المقالح، "**الحوار النقدي الداخلي ثم الحوار مع الجوار الحضاري**"، مؤتمر ((كيف نواصل مشروع حـــوار الحضـــارات)) دمشق , ٢٠٠٢، ص٢ .

ما أحوج الوطن العربي اليوم ممثلاً بزعمائه وساسته ومفكريه أن يبلغوا مستوى الخطاب الفكري التحليلي الَّـذي يعاين به السيد الرئيس الدكتور **بشار الأسد** الواقع من مختلف جوانبه، ويقدِّم من خلاله صورة واقعية لما يجـري في العالم، ويضع الحلول التي تناسب الإنسان العربي, حين يقول:(هناك مـا أسـميها خوارزميـة التفكيـر أي التسلسل المنطقي للتفكير الَّذي زُرع في رأس كل أو أغلب الأشخاص الموجودين خارج المنطقة بسبب الدعايـة الصهيونية من جانب ..... وبسبب غيابنا أيضاً من جانب آخر.. نحن نساهم بقسط كبير في هذا الخلل. الحقيقـة نحن لا ندافع عن المصطلحات كما قلت نحن نستورد بضائعنا. هم يقولون لنا كذا وكذا, ونحـن نسـوق سـواء كمسؤولين وأحياناً كصحافة... إعلام يلقون به في الساحة الإعلامية، ومن ثم يتحول هذا المصطلح إلى شتيمة أو شيء من الإهانة، أو الهجوم...), إلى أن يقول: (علينا أن لا نقبل بأي مصطلح يأتي من الغـرب، وعلينـا أن لا نخجل من مواجهة أي شخص يأتينا من الخارج ليعطينا دروساً . لا أحد يستطيع أن يعطينا دروساً. وفعـلاً فـي كل نقاش معهم الكثير منهم موضوعيون يقبلون هذا الكلام. هم ليسوا متعنتين عندما ينـاقش الإنسـان بمنطـق، ولكن نحن نهرب من أن ندافع عن أنفسنا. فكيف إذاً نريدهم أن يدافعوا عنا، ونحن لا ندافع عن أنفسـنا. علينـا دائماً أن نخلق المصطلحات.. أن نبتكر المصطلحات التي تتعلق بقضايانا)[١].

إن هذا الجانب المهم، والرئيسي لن يتحقق إلا إذا كان الانطلاق بداية من الداخل العربي، واستطاع العرب إقامة حوار داخلي بين اتجاهات الثقافة وتياراتها وأفكارها إلى جانب تدعيم النشاط الإبداعي، وتحريـره مـن الرقابـة والممنوعات والمحرمات, فكسر الفجوة ما بين الثقافي والسياسي في الوطن العربي, وإيجاد سلطة تصـغي لمـا يقوله المثقف لا يمكن أن تتم إلا من خلال حوار حقيقي بنّاء, وإن الاختلاف في الرأي والتعـدد فـي المـذاهب السياسية والفكرية والدينية ما هو إلا إثراء للثقافة وتأكيد على حضورها في الوقت الَّذي تشهد فيه الأمة العربيـة غزواً ثقافياً بالوسائل التي لا تستطيع مواجهتها إلا بالإنسان العربي نفسه المستهدف أولاً وآخراً [٢].

وقبل كل هذا وذاك يجب البدء من الأساس, فالمؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية لن تكون ذات فاعلية مـا لم تتحرَّر من الذهنية الرقابية وتتخلَّ عن نظم عملها العتيقة التي صارت عاجزة وغير مجدية في إشباع حاجات الناس الثقافية والجمالية والروحية, ومن الضروري بمكان إقامة التنسيق بين الجهات الرسمية والعلاقـات عبـر القومية الجماعية والجهود الفردية والجماعية الفكرية, والتواجد في الملتقيات العالمية أو الإقليمية الرسمية منها أو غير الرسمية, والتي تهتم بوضع المواثيق العالمية الخاصَّة بحقوق الإنسان والمرأة والأقليات وقـوانين تنظـيم

---

١ – **من الكلمة التي ألقاها السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد أمام مجلس الشعب** في دورته الافتتاحية الأولى من الـدور التشـريعي الثامن، الاثنين ٢٠٠٣/٣/١٠ .

٢ – فهمية شرف الدين، "**الفجوة بين الثقافي والسياسي في الوطن العربي**"، مجلة الرسالة ، العدد ١ ، شباط ، ١٩٩٧ ، ص٦ .

الهجرة في أوربا, وهذا ما يمس مباشرة أوضاع الجاليات العربية والمسلمة في الغرب، وكذلك صـورة الغـرب عن الإسلام، وبذلك توجَّب الانتباه إلى قنوات وآليات غير رسمية لها دور هام في التأثير السياسي قد يكون شديد الخطورة كما حدث صيف عام ١٩٩٩ في المعرض الدولي للثقافات في (ديزني لاند) عندما تمت إثـارة قضـية القدس في الجناح الإسرائيلي إلاَّ أن الموقف الرسمي لم يُعِرْ أي اهتمام لردود فعل الجماعات العربية والإسلامية والأمريكية المضادة. ومن المفيد الانتباه لخطورة ما تفعله هذه القنوات عندما تقوم بمراقبـة موجـات الأزمـات الثقافية التي تندلع في البلدان الإسلامية فيتم بالتالي توظيفها من قبل الغرب للتأثير على مسلمي الغـرب. ومـن أمثلتها إثارة أزمة الدكتور البغدادي في الكويت حين تم سجنه بسبب أحد مؤلفاته، أو مثلاً إثارة أزمة نشر كتـاب (وليمة لأعشاب البحر) للكاتب حيدر حيدر في مصر، أو أنشودة مارسيل خليفة في لبنان، وكذلك أزمة تسـليمة نسرين, وقبلها أزمة سلمان رشدي, وما إلى هنالك..., وما يتبعها من ردود فعل خطيرة بالنسبة للجاليات المسلمة في الغرب[١].

وهنا كان لزاماً على الأمة الإسلامية والعربية إيجاد آليات لدعم أنشطة الجاليات المسـلمة، ومسـاندة مطالبهـا الثقافية من خلال تشجيع إقامة الاتحادات بين المراكز والجمعيات الإسلامية فـي دول أوربـا, إضـافة لتنسـيق الاتصال بينها، وبين الحكومات والأجهزة الرسمية وغير الرسمية.

فهذه الروابط تبادلية، وذات اتجاهين بآن واحد, فالجاليات المسلمة في الغرب إذ تتطلب الدعم والنصرة والمساندة فإنها بالمقابل تُعدُّ ركناً هاماً ورصيداً فاعلاً في الغرب قد يساعد في تحقيق بعض أهداف العمل الثقافي الإسلامي في مواجهة الغرب, ومع ما لهذا التنسيق من فاعلية وأهمية كان لا بد بالتالي من تنشيط (الإيسيسـكو) لـدعم موقعها على شبكة المعلومات العالمية(الانترنت) وخاصَّة في المجال الثقافي بما يحقق التواصل الثقافي المعاصـر بين أبناء الأمة .

هذه نظرة عامة لما يجب أخذه بعين الاعتبار من قبل مفكري وساسة وحكَّام الوطن العربي, والأمة الإسلامية في ظل الظروف الصعبة الراهنة من أجل تحقيق وحدة في الخطاب الثقافي تقف في وجه طغيـان أسـلحة الغـرب الحالية، ونحو اهتماماته حول العولمة والثقافة والثقافة العالمية وعولمة الهوية وصـدام الحضـارات ..., وكمـا طغت الدراسات والنظريات الإستراتيجية العسكرية على غيرها زمن الاحتلال العسكري والاسـتعمار التقليـدي, ومثلما سادت دراسات الاقتصاد السياسي الدولي الجديد في مرحلة الاستعمار الجديد والاحتلال الاقتصادي, تتأكد

---

١ – نادية محمود مصطفى، "**محاضرات في حوار الحضارات**"، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، مرجع سابق ، ص ١٩٦-١٩٧

اليوم القناعة بأن المواجهة لا تقتصر على السياسة والاقتصاد، بل إن الحضارة والدين تنبعان من قلب سابقتيهما لأن الانتصار السياسي أو الاقتصادي لن يكتمل بدون الانتصار الثقافي والإعلامي.

هذا ما أكده ديفيد روشكوف مدير معهد كيسنجر كالكثيرين من أعلام الغرب ومفكريه، عندما قال:" إنَّ الهدف الأساسي للسياسة الخارجية في عصر ثورة المعلومات هو الفوز في معركة التدفُّق الإعلامي بالسيطرة على موجات البث مثلما كانت بريطانيا العظمى تسيطر على البحار.." إلى أن يقول: ".. إن مصلحة الولايات المتحدة إذا تواصلت أطراف العالم عبر الراديو والتلفزيون والموسيقى أن تكون القيم الأمريكية هي قيم العالم المشتركة", كما قال جوزيف ناي أمين عام وزارة الدفاع الأمريكية الأسبق:" الدولة الأقوى هي التي تتبوأ ثورة المعلومات"[١].

من هنا لزم على بلدان العالم الثالث بشكل عام أن تعرف مدى هذه المواجهة الثقافية, وأن تستغل تناقض الآخر، وتقوم بالتسلل لداخل هذه التناقضات حتى تسهم في مقاومتها، وتستفيد من نقاط ضعفه, آخذةً بعين الاعتبار كل الملاحظات التي سُجِّلت على التناقضات الثقافية والروحية في الغرب, والناجمة عن لا عقلانية الخطاب الَّذي يؤسس خطاباً على إرادة القوَّة, ولن يتحقق لبلدان العالم الثالث الاستفادة من هذه الملاحظات إلاَّ من خلال إنتاج ثقافة مشتركة فيما بينها, وهذا الأمر ليس بالمستحيل كما يتم تصويره، فبالعودة إلى تجارب ليست بالبعيدة في تاريخ بلدان العالم الثالث يمكن تذكر بعض الملامح البطولية، وما صور المقاومة الخلاَّقة التي ظهرت في كثير من هذه البلدان إلاَّ دليلٌ على ذلك, ومن بينها الثورة الإسلامية الكبرى التي أسست للجمهورية الإسلامية في إيران، وقبل هذه التجربة وبالتحديد في الخمسينيات من القرن الماضي كان كلّ من "جمال عبد الناصر" "ونهرو" و"تيتو" قد غرسوا البذرة الأولى لما أسموه بمنظومة دول عدم الانحياز مناهضين أكبر معسكرين شهدهما التاريخ البشري[٢].

من هنا يرى الباحث أنه يتعيَّن على البلدان العربية والإسلامية أن تعيد صياغة بناها الثقافية, وأن تشكِّل جبهة واحدة في وجه العدو المشترك، ومن ثمَّ تعيد صياغة نُظُمها الاقتصادية والسياسية, كي ترقى بالإنسان من عالم الحرمان والفقر إلى مستوى المواطن الفعَّال القادر على التعبير والعطاء في ظل مجتمع ديمقراطي تُمنح فيه مؤسسات المجتمع المدني جميع حقوقها، ويسوده بالتالي التداول السلمي للسلطة من خلال إقامة التوازن اللازم بين الدولة والمجتمع.

---

١ – توفيق شومان, "**الإعلام العربي وتحديات العولمة**"، الشاهد، العدد ١٥٨ ,تشرين أول ١٩٩٨, ص٧٥.

٢ – يوسف سلامة، "**محاضرات في حوار الحضارات**"، مرجع سابق , ص١٣١-١٣٢ .

خاتمة :

من خلال تناول الباحث لمشكلة العنصرية الغربية تجاه الشرق, لاحظ أنَّ الشرق يواجه تهديدات كُبرى، ويتعرَّض لمزيدٍ من التشويه والعداء, كما تتعرَّض علاقة العالم الإسلامي بالآخرين لاهتزازٍ في الثقة ولأخطاءٍ في الفهم, وفي هذا العالم الَّذي يساوره القلق من الحرب والإرهاب والتمييز العنصري، يأتي الحوار بين الحضارات والثقافات، كضرورة ملحَّة للعيش في عالمٍ آمنٍ ومستقرٍ, لكنَّ السلام والعدالة لا يمكن أن يتحققا عن طريق الحروب والتعصُّب والتمييز, لأنَّ أيّ سلامٍ ينتج عن طريق الحرب يكون سلاماً هشّاً وغير متين.

وهنا يأتي الحوار كضرورة حياتية للمجتمعات البشرية، ومنهج يعتمد على التفكير والعلم والإيمان, ليخلص إلى حالة من المعرفة المتبادلة, فيقف بالتالي في مواجهة النزاع والتخاصم والاعوجاج والمنافع الضيقة.

وهو بهذا المعنى يحارب فكرة صراع الحضارات التي تتضمَّن فكرة عنصرية, حيث يتم من خلالها رفض الآخر بسبب اختلافه, هذه الفكرة التي تدَّعي أنَّ الثقافة هي المسبب الأساسي للانقسامات والصراعات بين الشعوب والدول عبر التاريخ, رافضةً أن الاختلاف صبغة كونيَّة أغنت الحياة بألوان مختلفة من التفكير والسلوك، ومتجاهلةً أنَّ الحوار يُعطي لهذا الاختلاف بُعداً إنسانياً يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتالي بالتحوُّل إلى طاقةٍ تدميريَّة, بل إنَّه يرفع من مستوى إيجابياته، ويخفض من مستويات سلبياته, وبغير ذلك تتعرَّضُ الحضارات إلى زعزعة هويَّاتها, فتُضطرُّ حينها إلى الانكفاء والعزلة, حيث أنَّ أطروحة (صدام الحضارات) تحرِّض الغرب على مقاومة انبعاث باقي الحضارات, وتدعوها إلى الالتحاق والاندماج بالحضارة الغربية, في محاولةٍ لإرساء قيم الغرب بوصفها الحضارة الوحيدة, وهو يختزل التنوُّع الثقافي، وينظر إلى تجاربه باعتبارها تجارب كونيَّة, فتأتي ضرورة الحوار كعلم وثقافة وروحانية وكمشروعٍ سياسيٍ حضاري لحلِّ النزاعات، وترسيخ الوحدة الوطنيّة, وبناء المجتمع المدنيّ والديمقراطية.

ولكن يبدو أن هذا الحوار لم يأتِ ثماره, ولا يعتقد الباحث أنه قد يثمر بما أن الحوار بين الحضارتين لا يأخذ بعده الرسمي والجاد, وما دام مقتصراً فقط على اللقاءات الفردية التي غالباً ما تتحول إلى نوع من المناظرة على مستوى الباحثين والمفكرين أو من خلال وجهات نظر وآراء تكتب في الصحف والمجلات وغيرها والتي تهدف في الغالب إلى توظيف الخلافات بين الحضارتين لخدمة مصالح مجموعة معينة, وذلك من خلال إثارة العواطف وتحريكها من أجل التعبئة.

إذا الحوار بين الإسلام والغرب لا يأخذ شكله الرسمي, وإن حدث وأخذ هذا البعد فإن الطرفين يعتمدان الابتعاد عن إثارة نقاط الخلاف الأساسية التي تعيق التواصل بين الحضارتين, ففي ظل استمرار التفاوت بين الغرب والشرق اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وإعلامياً.... يبقى الحديث عن حوار الحضارات اسماً دون مسمى وبالتالي

من المتعذر أنه يخرج بصيغة نهائية للتواصل وتعميق روح الحوار وصولاً إلى مرحلة من التعـايش والشـراكة بدلاً من المواجهة من خلال أعمال العنف وإكالة التهم والشتائم, وهذا الأمر ليس بجديد أو غريب بالنسبة للغرب منذ أن أخذ يمارس دور الخداع, والذي تجلى بكل وضوح منذ القرن التاسع عشـر, هـذا القـرن الاسـتعماري التوسعي,حيث كانت ظاهرة الإمبريالية العرقية بنزعتها الاحتقارية للدول المستعمرة تبرر السيطرة, وهذه بدورها تغذية للعرقية, فبرّرت أوربا إمبرياليتها بوجود مهمة حضارية ورسالة إنسانية لها في المنـاطق التـي احتلتهـا. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨, وفي ظل عصبة الأمم المتحدة انتشر الحديث عـن حـق تقريـر المصير للشعوب والأمن الجماعي: إلا أنه بالمقابل كانت هناك حالة في الدول المستعمرة أفرغت هذه المقـولات من مضامينها, وفي سبعينيات القرن العشرين ظهرت مصطلحات وتعابير جديدة مـن ابتكـار الغـرب تجلـت بالحديث عن الاعتماد المتبادل الدولي, وعن حالة أكثر تعاونيّة تختلف عن الحالة الصراعية, إلا أنه علـى أرض الواقع تم تجسيد الحالة المعاكسة آنذاك, وبعد أزمة الخليج الثانية ظهرت أدبيات سياسية جديدة من ابتكار الغـرب شارحة النظام العالمي الجديد مؤكدةً إيجابياته وضروراته, وظهرت بالمقابل النظريات التي حذّرت مـن العـالم الثالث بصراعاته ومشاكله. من هذه المعطيات وغيرها يرى الباحث أنّ حوار الحضارات ما هو إلا من الطينـة التي جُبِلت بها نظرية صراع الحضارات في ظل غياب التكافؤ بين الغرب والشرق وهنا يأتي دور الشرق, فهـو صاحب المصلحة الحقيقية من الحوار الفعال والجاد وهو المتضرر الوحيد في حال عدم قيامه, وعليه بالتـالي أن يأخذ بأسباب تحقيقه, وبرأي الباحث أنّ هناك خطوات كثيرة ينبغي على الشرق أن يخطوها, وذلك ما تـم تبيانـه في هذا البحث.ويرى الباحث أن الشرق والعرب على وجه التحديد كمجتمع مستهدف من قبل الغـرب عليـه أن يسعى بكل الطرق والوسائل لمجابهة ظاهرة العنصرية تجاهه وأن تكون هذه المواجهة من قبل الإنسان العربـي النواة الأساسية لتحقيق هذا الهدف.

ويبقى السؤال هل باستطاعة الإنسان العربي أن ينهض بأعباء المواجهة وحده ؟. وفي الواقع يجـب الاعتـراف بصعوبة هذه المسؤولية, ولكن بضرورة تحملها في نفس الوقت. ففي ظل استحالة التعويل على الأنظمة العربيـة والتي ترجع إليها معظم هذه المعوقات والمشاكل في الواقع العربي من سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافيـة..., وهذه سهلت بدورها تمادي الغرب في ممارسة عنصريته تجاه الغرب, وعند هذه الظروف يـأتي دور المثقـف العربي والمسلم ودور الإعلام والصحافة والملتقيات الثقافية الإقليمية منهـا والعالميـة والمؤسسـات التربويـة والتعليمية , وكذلك الأحزاب السياسية التي عليها أن تكون ذات فاعلية حقيقية, وأن يكون التغيير إيجاباً من حيث المضمون قبل الشكل . وهنا يمكن القول بضرورة المواجهة من قبل الإنسان العربي ذاتـه, وبإمكانيـة تحقيـق الهدف لأن الانتصار السياسي أو الاقتصادي – كما بيّن الباحث في جوهر بحثه – لـن يكتمـل دون الانتصـار الثقافي .

نتائج الدراسة:

لقد توصل الباحث من خلال تناوله مسألة العنصرية الغربية في مواجهة الشرق من منظور سياسي ثقافي إلى النتائج التالية:

١- إن العنصرية لا تتجلى في شكل واحد, بل هي متنوعة متعددة, لها غايات مختلفة منها المادية الاقتصادية, ومنها الدينية, ومنها الشعور بالتمايز والهوية الخاصة, إلا أنها بكل أشكالها وأنماطها والوسائل التي تستخدمها لتحقيق أهدافها تبقى أخطر ما يهدد البشرية, ويثير القلق والاضطراب, ويؤدي إلى كوارث كبيرة.

٢- إنّ النظريات العنصرية والعرقية باطلةٌ من الناحية العلمية, وقد تم دحضها من قبل الكثير من العلماء والمختصين ,إلا أنها وُجدت ونمت برعاية الاستعمار الغربي كي يبرر حروبه وغزوه وتوسعه وسيطرته على باقي البلدان.

٣- كانت فكرة العرقية التي روجها الأوربيون وبالاً على البشرية, وانقلبت نتائجها السيئة ضدهم ,ولم يكونوا بمنأى عن خطرها ,وأكبر دليل على ذلك الحربان العالميتان الأولى والثانية ,وما أودت به هاتان الحربان من خراب وكوارث على أوربا ذاتها.

٤- أوضح ما يميز العنصرية الغربية في الفكر المعاصر هو وضع الإسلام تحديداً في خانة العدو الأساسي للغرب, وغض النظر إلى حد كبير عن بقية أجزاء الشرق, فقد توجهت العنصرية الغربية ضد الإسلام بشكل مطلق وشامل لكل النواحي أيديولوجياً وثقافياً وإعلامياً سياسياً واقتصادياً ......, فكأن الإسلام في الفترة المعاصرة هو العدو الوحيد, أو شبه الوحيد بالنسبة للغرب إذا ما تمَّ اعتبار الحضارة الكونفوشيوسية (الصينية) عدواً آخر للغرب, إلا أنّ هذه الحضارة لم تنل من الإساءة والعداء والضرر من قبل الغرب سوى الشيء البسيط مقارنة مع ما تعرض له الإسلام والمسلمون .

٥- إن الواقع الفكري والسياسي في الوطن العربي محفوف بالمآزق الكثيرة, تبدأ بالناحية الشكلية والإدارية, وتنتهي بالجوهر والمضمون, وبالتالي فإن مواجهة العنصرية الغربية تجاه الدول الإسلامية والعربية على وجه الخصوص تحتاج إلى قيام ثورة فكرية في هذه الدول من أبسط حلقة حتى أعقدها, وتكون البداية بإعادة بناها الثقافية, وتشكيل جبهة واحدة في وجه العدو المشترك, ومن ثم إعادة صياغة نظمها الاقتصادية والسياسية.

٦- لن يحقق حوار الحضارات بين الشرق والغرب دوراً فعالاً وجاداً وإيجابياً, وخصوصاً بالنسبة لدول الشرق في ظل استمرار التفاوت, وغياب التكافؤ بينها وبين دول الغرب من كل النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والإعلامية......

المراجع

الكتب :

١- ابن خليفة عليوي، "**الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء**"، دمشق، مطبعة خالد بن الوليد،١٩٧٧.

٢- أبو يعرب المرزوقي، "**الثقافة الإسلامية – محاضرات في حوار الحضارات**"، دمشق المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، ٢٠٠١.

٣- أحمد ثابت، "**رؤية الجماعات الإسلامية المتشددة للغرب**"، مصر، الأهرام، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، ١٩٩٩.

٤- أحمد فؤاد أنور، " **تاريخ اليهود**"، القاهرة، مركز الراية للنشر والإعلام ٣٠ ميدان الحسيني، مكتبة فكري، ط١، ١٩٩٣.

٥- إدمون رباط، "**المسيحيون العرب – دراسات ومناقشات**"، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١.

٦- إدمون فرمي، " **أقطاب وقادة الثورة الألمانية الكبرى**"، ترجمة خيري فخري، دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢.

٧- إدوارد سعيد، "**الاستشراق**"، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٢، ١٩٨٤.

٨- أدولف هتلر، "**كفاحي**"، بيروت، دار الكتب الشعبية، ط٢ ١٩٧٥.

٩- أديب خضُّور، "**صورة العرب في الإعلام الغربي**"، دمشق، خضور، ٢٠٠٢.

١٠- أمنون روبين شتاين، "**مراجعة الحلم الصهيوني من هرتزل إلى غوش آمونيم**"، ترجمة محمد نجاة العظم، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٩٢.

١١- إميل نويل، "**الداروينية كما تُرى اليوم**"، ترجمة محمد وائل الأتاسي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٤٨ .

١٢- أمين النفوري، "**إستراتيجية الحرب ضد إسرائيل والعمل العربي الموحد**"، دمشق، المكتبة الميدانية، ١٩٥٩.

١٣- أندريه كرسون، "**داروين**"، ترجمة سلمى زيادة، بيروت، المؤسسة العربية (دون ذكر عام نشر).

١٤- إيمانويل راتييه، "**خفايا وأسرار منظمة بناي بريت**"، ترجمة إحسان هندي، بيروت، الذاكرة للنشر والطباعة والتوزيع، ط١، ١٩٩٧.

١٥- ب.م. ميدنيكوف، "**داروينية القرن العشرين**"، ترجمة محمد أحمد شومان، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٢.

١٦- تروتسكي – مانديل، " **نصوص حول الفاشية**"، ترجمة كميل داغر، بيروت، دار الطليعة، ط١، آذار، ١٩٨١.

١٧- جورجي كنعان، " **العنصرية اليهودية** "، دمشق، دار النهار للنشر، ط١، ١٩٨٣.

١٨- حبيب قهوجي، " **الصهيونية والعنصرية في الفكر والممارسة** " دمشق، منشورات مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٨٠.

١٩- حسن أبو حمود, " **علم الاجتماع السياسي** "، دمشق، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٨/٢٠٠٩.

٢٠- خالد زيادة " **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا** ", بيروت، معهد الإنماء العربي, ١٩٨٣.

٢١- روجيه غارودي، "**في سبيل حوار الحضارات**"، ترجمة عادل العوا، بيروت، منشورات عويدات، ط١، ١٩٧٨.

٢٢- زكي الميلاد، "**الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل**"، دمشق، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٨.

٢٣- ستيوارت هود – وليتزا جانستز, " **الفاشية والنازية** ", ترجمة إمام عبد الفتاح إمام, القاهرة، إصدار المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٣.

٢٤- سعد الله بركات, " **القدس والإرهاب الصهيوني** ", دمشق، مطبعة اليازجي، ط١، ٢٠٠٠.

٢٥- سلسلة دراسات, "**الصهيونية والعنصرية**", دمشق، مطابع مركز المعلومات القومي, تشرين الثاني٢٠٠١.

٢٦- سلسلة محاضرات الإعداد السياسي للضباط, "**الإرهاب الصهيوني فكرة وممارسة**", دمشق، القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة، الإدارة السياسية، (دون ذكرعام نشر).

٢٧- سيد علي الحريري, "**الحروب الصليبية : أسبابها- نتائجها- حملاتها**", بيروت، مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.

٢٨- صاموئيل هانتنغتون, "**صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي**" , ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، دار سطور، ط٢، ١٩٩٩.

٢٩- طالب الجنابي, "**نظرية التطور الداروينية خرافة باسم العلم**", بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٩.

٣٠- عادل زيتون, "**العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى**", دمشق، دار دمشق، ١٩٨٠.

٣١- عبد الرحيم شريف, "**الفاشية عدوة الشعوب**", بغداد، مطبقة النقيض الأهلية، ١٩٤٢.

٣٢- عبد السلام المسدي, "**العولمة والعولمة المضادة**", «القاهرة، بدون دار نشر», ١٩٨٨.

٣٣- عبد الكريم اليافي, " **تمهيد في علم الاجتماع** " , دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ط٤, ١٩٦٤.

٣٤- علي الشامي, " **الحضارة والنظام العالمي، أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغـرب**", بيــروت، دار الإنسانية، ١٩٩٥.

٣٥- قاسم عبده قاسم, " **ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجيا- الدوافع- النتائج)**", الكويت, المجلــس الــوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، أيار، ١٩٩٠.

٣٦- محمد أركون , "**الإسلام وأوربا والغرب : رهانات المعنى وإرادات الهيمنة**" , ترجمة هشام صالح، بيروت، دار السواقي، ١٩٩٥.

٣٧- محمد عابد الجابري , "**المشروع النهضوي العربي – مراجعة نقدية**" , بيروت، مركــز دراســات الوحــدة العربي، ط١، كانون الأول، ١٩٩٦.

٣٨- محمد عابد الجابري , "**قضايا في الفكر المعاصر**" , بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٧.

٣٩- محمد علي حوات , "**العرب والعولمة، شجون الحاضر وغموض المستقبل**" , القــاهرة , مكتبــة مــدبولي، ٢٠٠٢.

٤٠- مراد هوفمان, "**الطريق إلى مكة**", القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨.

٤١- مروان مشاكل, "**خرافة الصهيونية ومواقفها المتردية**" , دمشق, مطابع الإدارة السياسية (دون ذكــر عــام نشر).

٤٢- مصطفى حجازي, "**حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية**" , بيــروت, المركــز الثقــافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ١٩٩٨.

٤٣- منظمة أونسكو, "**العرقية إزاء العلم**", ترجمة أنطوان بطرس خوري، بيروت، دار الثقافة, ١٩٧٠.

٤٤- نادية محمود مصطفى, " **الثقافة الإسلامية – محاضرات في حوار الحضارات** ", دمشق, المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، في دمشق، ٢٠٠١.

٤٥- نيرمين سعد الدين إبراهيم, " **صعود النازية** ", دمشق، دار صفحات للدراسات والنشر, ٢٠٠٨.

٤٦- هشام الحديدي, "**الإرهاب**", القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

٤٧- وليام رايخ – نيقوس بولنزاس, " **دراسات في الفاشية** ", ترجمة جوزيف سماحة، بيروت, المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٨.

٤٨- وليام شيرر, " **تاريخ ألمانيا الهتلرية** ", تعريب خيري حمّاد، بيروت، منشورات مكتبــة المثنــى، بغــداد، توزيع دار الكتاب العربي، ط٣، شباط، ١٩٦٦.

٤٩- يوسف سلامة, "**الثقافة الإسلامية – محاضرات في حوار الحضارات**", دمشق, المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، ٢٠٠١.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Chrales Glass, "**jeus against Zion: Israeli jewish Anti – Zionism**" journal of Palestine studies, V, I and 2, (Autumn 1975/ winter 1976.

- Rogeh Garoudy, "**Relijious and historical pretexts of Zionism**", journal of palestiine studies, /VI/2 (winter 1977).

- Theador Herzl, "**opening address at the second Zionist congress**" Zionist wirtings, essays, and addresses, Vol, II, translated for German by Harry Zohn (new york: Herzl press, 1975).

الدوريات والصّحف:

١- أحمد فاروق عبد العظيم "**ليبرالية الحرب- النظرية السياسية الليبرالية ومعضلة العنف، الخطاب حول العراق نموذجاً**" مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥١، يناير، ٢٠٠٣.

٢- برهان غليون "**اغتيال العقل – تراجيديا الثقافة العربية**" عرض أحمد حداد، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٤١، آذار، ١٩٨٦.

٣- توفيق شومان "**الإعلام العربي وتحديات العولمة**" الشاهد، العدد ١٥٨، تشرين أول، ١٩٩٨.

٤- جان جبور "**بين التاريخ والسياسة من الَّذي يصنع الثورة**" صحيفة المستقبل، عدد ٨٧٧, ٢٠٠٢/٣/٣٠.

٥- جهاد فاضل "**جائزة نوبل للآداب وإلى أجل غير مسمّى – الأفضلية للمعادين للإسلام أو للمنشقين عنه**" الحوادث، العدد ٢٣٩٦، ٢٠٠٢/١٠/٤.

٦- خالد الأصور "**صورة الإسلام في الإعلام الغربي**" مجلة السياسة الدولية، العدد ١٤٧, يناير، ٢٠٠٢.

٧- ستيفن كليمونس "**حرب شاملة ضد خطر متفشّ – الولايات المتحدة إفراط في الجبروت**" مجلة الطريق، العدد السادس، السنة الستون، تشرين ثاني وكانون أول، ٢٠٠١.

٨- سليمان العكسري " **ثقافتنا العربية وثقافتهم الغربية** " مجلة العربي، العدد ٥٢٢، أيار, ٢٠٠٢.

٩- سمير أمين "**فخ الثقافوية، نقد كتاب رضا هلال (المسيح اليهودي ونهاية العالم)**" مجلة الطريق، العدد الرابع، السنة الواحدة والستون، تموز – آب، ٢٠٠٢.

١٠- سهيل عروس "**مأزق الليبرالية – نهاية التاريخ نموذجاً**- " مجلة الفكر السياسي, العدد ١٥، السنة ٥، آذار،٢٠٠٢.

١١- شريف بسيوني "**الحرب الأمريكية في العراق – مشروعية استخدام القوة** " مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥١، يناير، ٢٠٠٣.

١٢- عبد الله يوسف "**السلام بين العرب وإسرائيل، البعد الثاني من الرأي المعارض**" مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥٠، أكتوبر، ٢٠٠٢.

١٣- علي حرب "**غزو ثقافي فتوحات فكرية**" مجلة الفكر العربي، العدد ٧٤، خريف ١٩٩٣.

١٤ – غازي حسين , " **الاستعمار وتأسيس الدولة الصهيونية** " , مجلة الطلائع , العدد ٦٢٥ , ١٩٨٣.

١٥- فهمية شرف الدين "**الفجوة بين الثقافي والسياسي في الوطن العربي**" المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، مجلة الرسالة، العدد١، شباط، ١٩٩٧.

١٦- فهمي هويدي " **الإعلام الأمريكي متلبِّساً بالجرم المشهود**" المجلة، العدد ١١٩٨, ٢٠٠٣/٢/١.

١٧- فهمي هويدي " **تقرير عن الحالة الإسلامية في أمريكا** " المجلة، العدد ١٢٠٠, ٢٠٠٣/٢/١٥.

١٨- كارلا كونينجهام "**الأصولية الإسلامية ونظرية الدومينو**" ترجمة حسن عبد الله جوهر, مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٥، تموز، ١٩٩٦.

١٩- كريم مروة "**من وحي الحدث الأمريكي – تأملات في عالم الغد**" مجلة الطريق، العدد السادس، السنة الستون، تشرين الثاني وكانون الأول، ٢٠٠١.

٢٠- مارلين نصر "**صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**" مجلة المستقبل العربي، العدد ١٩١، كانون٢، ١٩٩٥.

٢١- مصطفى المصمودي "**الخطاب الإعلامي العربي الجماعي للرأي العام الخارجي ما بين تراخي الإرادة وضعف القدرة**" مجلة شؤون عربية، العدد ١٠٨، كانون أول، ٢٠٠١.

٢٢- مصطفى أنطاكي " **في الأصولية الصهيونية** " دمشق، مطابع الإدارة السياسية، مجلة جيش الشعب، العدد ١٩٦٠، آب، ٢٠٠٦.

٢٣- محمد حبيب صالح "**الصهيونية الأمريكية وأزمة نظرية (دولة يهود العالم)**", جامعة دمشق, دراسات إستراتيجية، مركز الدراسات والبحوث الإستراتيجية، السنة الثالثة، العدد الثامن، ٢٧ربيع, ٢٠٠٣.

٢٤- محمد صادق إسماعيل "**السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين بين الأبعاد الثقافية والحضارية والأبعاد الإستراتيجية**" مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥١، يناير، ٢٠٠٣.

٢٥- نبيل بيهم "**في أيديولوجية العنف**" الطريق، العدد ٤، السنة ٤٣، آب، ١٩٨٤.

ندوات ومؤتمرات:

١- الفضل شلق " **النخبة تجاه المجتمع والدولة وأفكار مقترحة حول التجديد**", مقال غير منشور, ألقي في كلية العلوم السياسية عام ٢٠٠٣.

٢- **الكلمة التي ألقاها السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد** أمام مجلس الشعب في دورته الافتتاحيـــة الأولـــى من الدور التشريعي الثامن، الإثنين، ٢٠٠٣/٣/١٠.

٣- محمد محمد المقالح " **الحوار النقدي الداخلي ثم الحوار مع الجوار الحضاري**" دمشق، مؤتمر (كيـــف نواصل مشروع حوار الحضارات)، ٢٠٠٢.

٤- نادية مصطفى " **أولى حروب القرن الواحد والعشرين، ووضع الأمة الإســـلامية، وبـــروز التحـــديات الحضارية والثقافية** " دمشق، مؤتمر (كيف نواصل مشروع حوار الحضارات)، ٢٠٠٢.